

كلمات تقديم

الجزء الخامس

عباس الجراري

كلمات تقديم

الجزء الخامس

جمع و تقديم:

حميدة الصايغ الجراري

تصدير:

الأستاذ محمد اليملاحي

منشورات النادي الجراري رقم 70

الرباط 1437هـ/2016م

الكتاب : كلمات تقديم
المؤلف : عباس الجراري
الناشر : منشورات النادي الجراري رقم 70
الطبعة : 2016
الايداع القانوني : 2016MO1699
الردمك : 978-9981-893-46-7
الطباعة والاعراج الفني :

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد أن سعدت بإعداد أربعة أجزاء من "كلمات تقديم" تضمنت نصوص هذه الكلمات مذيّلة بالتقديم لدواوين موسوعة الملحون، ها هو الجزء الخامس يُضم إليها، وقد حصلت استجابةً لما سبق أن هدفت إليه من جمع التقديمات وسجلته في تقديمي للجزء الأول من طلب العناية بهذا الصنف من الكتابة الأدبية ودراسته وتحليل نصوصه. ولا أنسى أنه كانت هناك إضاءات بخصوصه وومضات أطلقت في بعض جلسات النادي الجراري من قبل. غير أن الأستاذ محمد اليملاحي أتحنفا مؤخرًا وفي إحدى هذه الجلسات بدراسة أكاديمية تحليلية للتقديمات، جاءت متجاوبة في كثير من نقاطها مع ما سبق أن أشرت إليه في البداية. وهو ما جعل واضح "كلمات تقديم" يُصدّر بها هذا الجزء شاكرًا للأستاذ اليملاحي فائق عنايته بها مما سيفيد منه الدارسون لهذا النمط من الكتابة.

هذا ولن أحتفظ لنفسي بقرار الاستجابة لدعوة الأستاذ اليملاحي بجمع مقدمات أستاذي عباس الجراري، وإن كنت لا أفوت الإشارة أنه هو شخصيا سبق أن جعل في موقعه الإلكتروني بابا لـ "مقدمات مؤلفاته".

فعسى الوقت والتوفيق أن يسعفاني لأوفي المهمة وأكون عند حسن الظن.

إنه سميع مجيب.

15 جمادى الثانية 1437هـ

حميدة الصايغ الجراري

الموافق 25 مارس 2016م

تصدير

خطاب الهوية و الأخلاق

قراءة في كتاب: كلمات تقديم للأستاذ عباس الجراري*

الأستاذ محمد اليملاحي

الأستاذ بالمدرسة العليا للأساتذة

التقدم — الرباط —

* ألقى العرض بالنادي الجراري بتاريخ 23 أكتوبر 2015.

بسم الله الرحمن الرحيم

سأنطلق في هذا العرض من التذكير بأهمية المقدمة في التأليف العربي قديماً وحديثاً، ثم أنتقل إلى مصطلحات المقدمة والتقديم والتصدير وغيرها من المصطلحات المجاورة التي تلتبس على كثير من القراء. وسأقف بعد ذلك عند ظروف إصدار "كلمات تقديم" للأستاذ عباس الجراري ودور الأستاذة حميدة الصايغ في ذلك، لأركز فيما بعد على بناء كلمات التقديم ونواتها الصلبة وأصولها الأخلاقية وكذا أسلوب صياغتها وأختم ببعض الخلاصات والاستنتاجات.

أولاً: مكانة المقدمة في التأليف العربي

تندرج المقدمات ضمن ما يسمى بالتأليف التمهيدي للنص. وتنقسم بصفة عامة إلى قسمين هما: مقدمات العلوم ومقدمات الكتب¹. ويهمننا القسم الثاني الذي ينقسم بدوره إلى قسمين: أولهما يتعلق بتقديم المؤلف "لأهم المبادئ والمناهج التي سيقوم عليها مؤلفه فيما بعد"²، وثانيهما يتعلق بمقدمة غير المؤلف، ويطلق عليها مصطلح "تقديم" إذ يتولى شخص آخر

1- لمزيد من التفصيل يراجع كتاب: عبقرية التأليف العربي، علاقات النصوص والاتصال العلمي، للدكتور كمال عرفات نبهان، مركز دراسات المعلومات والنصوص العربية - القاهرة 2006. وكذا كتاب: مقدمة الكتاب في التراث الإسلامي وهاجس الإبداع للدكتور عباس أرحيلة، المطبعة والوراقة الوطنية - مراكش 2003.

2- مجدي وهبة [بالإنجليزية] أورده كمال عرفات نبهان في المرجع السابق، ص: 109

التقديم لكتاب لأسباب سنشير إليها لاحقاً. أما التصدير فقد يكتبه المؤلف أو غيره.

وقد حظي التقديم بعناية بعض الكتاب العرب المحدثين ؛ إذ قدموا لمؤلفين آخرين. وقد برز في هذا الميدان طه حسين وعباس العقاد وغيرهما. وقد جمعت مقدمات طه حسين لغيره من المؤلفين في كتاب بعنوان "كتب ومؤلفون: مقدمات طه حسين لكثير من الكتب"، تجميع وتقديم شكري فيصل، دار العلم للملايين 1980¹.

وفي مقابل ذلك لم تحظ هذه التقديمات بالدراسة لإبراز خصائصها وأساليبها التعبيرية.

ثانياً: ظروف إصدار الكتاب

يتكون الكتاب بأجزائه الأربعة من مجموع التقديمات التي سبق للمؤلف أن قدم بها لمجموعة من الكتب، وقد تولت الأستاذة حميدة الصايغ جمع تلك التقديمات المتفرقة وإعادة نشرها مجتمعة في كتب مستقلة، كما حرصت على تعريف كل جزء بتعريف تقديمات كل جزء.

وتنطوي مقدمات الجزأين الأول والثاني على أمرين هاميين:

الأول: ظروف إخراج الكتاب.

1- أورده كمال عرفات نيهان، ص: 113

الثاني: معايشة الأستاذة حميدة الصايغ لتكون الكتابة عند الأستاذ الجراري وتبلورها النهائي في شكل كتب أو بحوث أو مقالات أو محاضرات ... وقد نعود لهذا الجانب في مناسبة أخرى لنركز الآن على الجانب الأول ؛ إذ تشير الأستاذة إلى أن التفكير في إصدار كلمات تقديم عن لها أثناء توقف إنتاج الأستاذ بسبب الوعكة الصحية التي تعرض لها سنة 2005 وما نتج عنها من مضاعفات سنة 2006¹، فبادرت إلى جمع تلك التقديمات لتجعل منها أحسن هدية تقدمها لشريك حياتها.

وتكشف هذه الالتفاتة عن دور الكتابة في تجاوز الأزمات، وخاصة بالنسبة لمن يحترفون الكتابة بكافة أجناسها.

ويمكن قراءة هذه التقديمات من منظورين:

المنظور الأول يصلها بالكتب التي قدمت لها، وتتجه القراءة هنا إلى بيان وظائف التقديمات بالنسبة للمتون، كتأطيرها ضمن حقبة خاصة وبيان قيمتها المعرفية والمنهجية، والمآخذ المسجلة عليها، إلى غير ذلك من المسائل المرتبطة بهذا الكتاب أو ذاك. وفي هذه الحالة تظل كل مقدمة مشدودة إلى المتن الذي قدمت له ولا تتجاوزه إلى غيره.

1- كلمات تقديم، عباس الجراري، جمع وتقديم حميدة الصايغ الجراري، ج. 1، ص: 11، منشورات النادي الجراري (34) - مطبعة الأمنية - الرباط 2006.

وأظن أن هذه القراءة تحجب القيمة النظرية لهذه المقدمات لأنها تخفي الرؤية الشمولية التي تسلكها جميعا، وهو ما سيحاول المنظور الثاني إثباته وإبرازه.

المنظور الثاني يفصل تلك المقدمات عن متونها ويعيد وصلها ببعضها البعض، لتصبح نصوصا "مستقلا" عن تلك المتون تحكمه رؤية واحدة. وتكتسب هذه القراءة وجاهتها من جهتين:

1- إعادة نشر التقديمات في كتب مستقلة، ما يسمح بالنظر إليها في سياق وضعها الجديد.

2- فك الارتباط، ولو نظريا، بين المقدمات ومتونها يعطي حياة جديدة لتلك المقدمات ويفتح الباب لرؤية أمور لا تكون رؤيتها متاحة قبل طبعها مجتمعة.

وتتكون هذه التقديمات من اثنين وتسعين تقديمًا تتوزع على الأجزاء الأربعة بنسب متفاوتة، كما تغطي فترة زمنية تمتد من عام 1974 إلى عام 2011. وتختلف مواضيع التقديمات باختلاف مواضيع الكتب التي تقدم لها؛ إذ تجمع بين تحقيق وجمع ودراسة نصوص الشعر والنثر المغربيين وتعرف ببعض أعلام الأدب المغربي الحديث، كما تقدم لبعض الأعمال الإبداعية المعاصرة من شعر وسرد ومقالة وغيرها من الفنون الأدبية.

غير أن أهم التقديمات، في نظري، تتعلق بمؤلفات تعود أصولها إلى رسائل جامعية سبق للمؤلف أن أشرف عليها لاجتياز أصحابها لمرحلتى دبلوم الدراسات العليا والدكتوراه، أو بمؤلفات أنجزها هؤلاء بعد اجتيازهم للمرحلتين المذكورتين، وهذا ما يفسر حظوة بعض الباحثين بأكثر من تقديم واحد.

السؤال الذي قد يتبادر إلى الأذهان هنا هو: بم يمكن تفسير ظاهرة التقديم بصفة عامة؟ ما معنى أن يلجأ باحث إلى باحث آخر لتقديم عمله؟ ولماذا يستجيب هذا لذاك؟

الواقع أن المستهدف الأول من التقديم هو القارئ لأن التقديم يقوم هنا بوظيفة حجاجية تهدف لتزكية الكتاب ودفع القراء للإقبال عليه، سيما إذا كان صاحب التقديم يمثل "سلطة علمية" لما راكمه من أعمال وخبرات في مجال تخصصه، كما هو الحال بالنسبة للأستاذ الجراري.

وغني عن البيان أن هذا النوع من التزكية مؤشر على انخراط الباحث الناشئ "في جملة من الأفكار والعادات الذهنية والقواعد السلوكية التي تتبعها الجماعة العلمية التي يندمج فيها، سواء عند تكوينه في المعهد أو

الجامعة وعند تدريبه على البحث المنظم ... ومن خلال مشاركته في اللقاءات العلمية من أجل بسط الفرضيات وتداولها وفحصها مع زملائه¹.

وعادة ما تقود الجماعة العلمية شخصية منظرية لتصوير جديد في مجال علمي معين سرعان ما ينتشر ويتسع بفضل الباحثين الناشئين، ولذلك نجد الشخصية العلمية المذكورة معنية بتتبع نشاط أعضاء جماعتها سواء داخل الجامعة أو خارجها. وهذا ما ينطبق إلى حد بعيد على الجماعة العلمية التي قادها الأستاذ الجري، وما زال، طيلة عقود من الزمن. وتعد كلمات التقديم أحد مظاهر ذلك التتبع ولذلك تعتبر، في نظري، سجلا لسيرة حركة البحث لدى الجماعة أو سيرة علمية لشخصيتها الجمعية.

ويمكن الاستدلال على صحة هذه الدعوى من خلال شواهد نصية عديدة من الكتاب بأجزائه الأربعة، غير أننا سنقف عند فقرة دالة تغني عن مثيلاتها من الشواهد، وهذا نص الفقرة: "... ومن ثم عملنا على تشجيع دارسيه من الشبان المؤهلين لاجتياز مرحلتي الدبلوم والدكتوراه، ورعايتهم ليس فقط بالإشراف وما يقتضي من تتبع وتوجيه، ولكن باحتضانهم كذلك داخل أسرة هي مع اتساع شعابها وشساعة رحابها تلم الشمل وتقرب الرؤى، على ما في هذه الرؤى من تنوع غني وتعدد خصيب.

1- خصوبة المفاهيم في بناء المعرفة، دراسات إبستمولوجية، بناصر البعزاتي، ص: 112 - دار الأمان - الرباط

ولعل المنهج الذي دعونا إليه وما نزال، كان في روحه وإطاره وإن تباينت مفرداته وأدواته - محور هذا اللم والتقريب، وأكد أقول هذا الاستقطاب¹.

وتكشف هذه الفقرة بوضوح عن الاستراتيجية التي وضعها الأستاذ الجراري لتنفيذ مشروع بناء صرح الأدب المغربي كما يتضح ذلك من خلال الكلمات التالية: الشبان المؤهلون، التشجيع، الرعاية، الإشراف، التتبع، التوجيه، الاحتضان، الأسرة، اللم، التقريب، الاستقطاب. غير أن أكثر الكلمات دلالة هي "الأسرة" إذ تتضمن أغلب ما ورد بباقي الكلمات، كما أن استعارتها من المجال الاجتماعي يكشف عن تصور الأستاذ الجراري لعلاقة الأستاذ بطلبته؛ إذ ليست علاقة إدارية محكومة بزمان ومكان معينين، بل هي علاقة أب بأبنائه، ولعل هذا ما يفسر أمرين مهمين:

1- التعبير عن الفرح والسرور أثناء تقديم العمل، ولهذا تطرد عبارات من قبيل: يسعدني، الغبطة والاعتزاز، مشاعر البهجة والسعادة، الشعور بالاعتزاز...

2- الحرص على استمرارية العلاقة بعد اجتياز مرحلتي الدبلوم والدكتوراه، ما يجعل هذه التقديمات مرحلة أخرى من مراحل التشجيع والرعاية والتتبع والتوجيه ولم الشمل وتقريب الرؤى إلى غير ذلك من مظاهر العناية والاهتمام. ولهذا تؤلف كلمات التقديم بين عدد من الباحثين

1- عباس الجراري، مرجع سابق، ص: 91

والمبدعين على ما بينهم من اختلاف في الجنس والسن والتخصص والشهرة والمكانة العلمية. ولعل النادي الجرائي صورة حية للتأليف المذكور، وأفترض أن هذا يعود إلى نزعة تدبير الاختلاف، وهو أصل ثابت في رؤية الأستاذ الجرائي لموضوع الأدب وغيره.

ثالثاً: بناء المقدمات

يقصد بالبناء هنا الطريقة التي بنى بها المؤلف تقديماته: بم يبدأ؟ وبم يثني؟ وبم يثلت؟ وذلك لأجل الكشف عن منطقتها الداخلي وإخراجه لواضحة النهار مع الوقوف عند الوسائل اللغوية التي أنشئت بها هذه التقديمات. وبالرغم من المدة الطويلة التي تفصل بين أول وآخر تقديم، فإن جميع التقديمات تخضع لبناء واحد يقوم، بصفة عامة، على تقسيم كل تقديم إلى عنصرين بارزين: أولهما عام، وثانيهما خاص.

يتميز العنصر الأول بطابع نظري واضح يعرض بإيجاز للدراسات المغربية سواء من حيث الموضوع أو المنهاج، مع الإشارة إلى الإطار العام الذي يندرج فيه الكتاب الذي يقدم له المؤلف.

ويكتسي هذا العنصر أهمية خاصة لأنه يلقي كثيرا من الضوء على باقي مؤلفات الأستاذ الجرائي، كما أنه ينطوي على بعض الإشارات التي تكشف عن بعض القنوات الفكرية للمؤلف، والتي لم تسمح الطبيعة الأكاديمية لباقي مؤلفاته بظهورها على هذا النحو لأن المؤلف يجد نفسه

هنا حرا تطبيقا دون القيود التي تفرضها الكتابة الأكاديمية ، ولعل هذا ما يفسر حضور الأفعال الدالة على الشعور والأحاسيس كما سنرى ذلك في العنصر الثاني.

أما العنصر الثاني الخاص ، فيتنفرغ إلى مجموعة من العناصر الصغرى هي :

- التعريف بإيجاز بالكتاب.

- الصعوبات التي اعترضت الباحث في إنجازه.

- بيان قيمته وأهميته.

- الدعاء لصاحب الكتاب.

وأهم ما يثير الانتباه في هذا العنصر هو الحرص الشديد على الاعتراف بمجهود الطالب خلال مسيرة بحثه والإشادة بقيمة البحث ونتائجه لدرجة يخال معها القارئ أن الأستاذ، خلافا للأعراف العلمية، مدين للطالب بذلك الاعتراف. ولهذا لا يجد الأستاذ الجراري أي حرج في ذلك، بل يتجاوزه إلى تقديم شهادته في حق الطالب وعمله وهو العارف بثقل مصطلح الشهادة في المجال التداولي الإسلامي.

لنستمع للأستاذ وهو يدلي ببعض الشهادات :

”ومن مركز المسؤولية العلمية في تخصص الدراسات العليا المغربية أشهد أن باحثات كثيرات أنجزن وينجزن رسائل وأطروحات أهلت البعض منهن للتدريس بالكليات“¹.

”إن من واجبي -بل من حق الطالب علي- أن أشهد له بالتوفيق الذي حالفه في هذه الدراسة المضنية“².

”وإني لأشهد بأن هذه الأطروحة تمتاز بجودة متفردة“³.

وواضح من خلال هذه النماذج وغيرها أن الإدلاء بالشهادة هنا استجابة لطلب داخلي يمليه الضمير والإحساس بالمسؤولية الناتجين عن أصل أخلاقي سنقف عليه لاحقا.

ويكشف هذا الاطراد في بناء التقديمات صدور الأستاذ الجراري عن خطاظة ذهنية لبناء التقديمات وصياغتها لدرجة تصبح معها ضربا من الصنعة له أصول وقواعد وغايات سواء على مستوى المعنى أو المبنى، ولن يتأتى هذا إلا لمن خبر العربية وعاشرها لمدة طويلة قراءة وكتابة.

1- عباس الجراري، مرجع سابق، ص: 68

2- ”،،،،،،“، ص: 76

3- كلمات تقديم، عباس الجراري، جمع وتقديم حميدة الصايغ الجراري، ج. 2، ص: 76 - منشورات النادي

الجراري (38)، مطبعة الأمنية - الرباط 2007

ومن شأن مقابلة هذه التقديمات بنظائرها في اللغة العربية أو اللغات الأجنبية، أن يساعد على وضع قواعد أو على الأقل مبادئ كلية لصياغة التقديمات لوضعها بين أيدي المعنيين من الباحثين.

رابعاً: النواة الصلبة للتقديمات

أفترض أن النواة الصلبة لهذه التقديمات، بل لسائر مؤلفات الأستاذ الجراري هي مسألة الهوية المغربية بكافة أبعادها العربية والإسلامية والأمازيغية والحسانية. وقد تبدو هذه الفرضية ضعيفة أو مستبعدة بالنسبة للبعض وخاصة لتقديمات تعرف ببعض الإصدارات لا غير، ولكن التأمل الجيد لخطاب هذه التقديمات وربطها بباقي أعمال المؤلف يرجح صحة الفرضية المذكورة، سيما وأن هناك بعض الدراسات الجديدة التي أثبتت أن الأدب يقوم بدور مركزي في بناء الأمة وتعزيز الشخصية القومية الخاصة بها.

وسنحاول هنا الكشف، في عجالة، عن بعض تجليات الهوية في ثنايا كلمات التقديم من خلال جمعها والتأليف بينها عسى أن نتوصل إلى تحديد بعض الملامح العامة التي تطبع تفكير الأستاذ الجراري وتؤطر آراءه. التجلي الأول للتمسك بالهوية هو حرص الأستاذ الجراري على إثبات تاريخ كتابة نصوص التقديمات بالتأريخ الهجري متلوا بموافقه من التاريخ الميلادي باستثناء تقديم واحد أثبت فيه التاريخ الميلادي لا غير¹.

1- كلمات تقديم، ج. 1، ص: 10

قد تبدو هذه الملاحظة غير مجدية ولكنها ليست كذلك بالنظر إلى أطرافها على ذلك النحو من الترتيب من جهة، ولكون تأريخ الزمن وتقطيعه، من جهة أخرى، ارتبط برؤية حضارية معينة للزمن والكون بصفة عامة. وعلى هذا الأساس، فإن إثبات التاريخ الهجري أولاً مؤشر على أحد أبعاد الهوية المغربية، كما أن إثبات التاريخ الميلادي عقب ذلك مؤشر على انفتاح هذه الهوية على محيطها.

وفي علاقة بهذا العنصر، ترد إشارات كثيرة في عدد من التقديمات إلى تجذر البعد الديني في عمق ضمير المغاربة واقتترانه بالمشروعية والوطنية، هذا دون إغفال ما للغة العربية من دور في ترسيخ الهوية.

ويؤدي مجموع هذه الإشارات إلى أن بناء صرح الأدب المغربي كما يتجلى من خلال التقديمات لا ينفصل أبداً عن بناء الهوية المغربية ومدها بمجموعة من المقومات. ومن هنا يصبح تحقيق النصوص مثلاً بمختلف أجناسها تحقيقاً وإثباتاً للهوية. صحيح أن الطالب الباحث قد لا ينتبه لهذا في غمرة انشغاله بالبحث عن نسخ هذا المخطوط أو ذاك ومقابلة النسخ ببعضها لتخريج نسخة يطمئن إليها، ولكن الأستاذ الجري يكون على بينة من هذا، سواء تعلق الأمر بتحقيق النصوص أو جمعها أو دراستها، لأن البحث الأدبي عنده، فيما يبدو، سياسة تخضع لتخطيط مسبق، صريح أو ضمني، علني أو مستور. المهم أن الصدفة مستبعدة هنا حتى

بالنسبة لتلك البحوث التي تبدو بعيدة كل البعد عن هذه الدعوى، كل بحث مهما كانت طبيعته لبنة صالحة لبناء صرح الأدب والهوية المغربيين. ولتقريب الفكرة إلى الأذهان، أمثل بعلاقة المهندس بالبناء؛ إذ ما أن ينتهي المهندس من تصميم البناء حتى يكون حاضرا بالنسبة إليه، ليبدأ فيما بعد عمل البناء الذي يخرج التصميم من القوة إلى الفعل دون أن يكون، بالضرورة، على علم بغايته ومقاصده.

وتكشف التقديمات عن ملامح التصميم الذي وضعه الأستاذ الجراري لبناء الأدب المغربي بشعره ونثره ولغاته، وذلك عن طريق موضعة الكتب الذي يقدم لها ضمن مواقع معينة، مع الحرص على ربط الصلة بينها.

خامساً: الأصل الأخلاقي للتقديمات

تصدر هذه التقديمات عن أصل أخلاقي يتجلى في عدة مظاهر منها على الخصوص:

أ- التسامح: ويظهر في كيفية تعامله مع الكتاب الذي يقدم له؛ إذ "يستخلص مزاياه فيثني عليها، ويكشف نواقصه فينبه إليها. وهو بقدر ما يكون كريما في الأولى، يكون رحيما في الثانية، يلتمس الأعذار ويشجع على الاستمرار"¹.

1- كلمات تقديم، ج. 1، ص: 19

الحديثة ... وهو منطق الحجاج والحوار، كما يتولى فرع التداوليات من اللسانيات الحديثة النظر فيه لاختصاصه بدراسة الاستعمالات اللغوية في تعلقها بمقامات الكلام"¹.

ويعود إطلاق مصطلح التأدب إلى روبين لاكوف الذي أورده في مقالته الشهيرة "منطق التأدب"، وقد فرعته إلى ثلاث قواعد تهذيبية هي: قاعدة التعفف، قاعدة التشكك، قاعدة التودد. وتهمنا هنا القاعدة الأخيرة لأنها تنطبق، إلى حد كبير، على خطاب تقديمات الأستاذ الجراري. وتوجب قاعدة التودد "على المتكلم أن يعامل المخاطب معاملة الند للند، ولا تفيد هذه المعاملة إلا إذا كان المتكلم أعلى مرتبة من المستمع أو في مرتبة مساوية لمرتبته، ومتى قام المتكلم بشرط المعاملة بالمثل، مستعملاً لذلك الأدوات والأساليب والصيغ التي تقوي علاقة التضامن والصداقة بينهما، نحو ضمير المخاطب والاسم والكنية واللقب، أنس به المخاطب أنسا واطمأن اطمئنانا إلى ما يبديه له من ثقة وعناية"².

ويلاحظ أن الأستاذ الجراري يستعمل، بالإضافة إلى اسم ولقب الباحث الذي يقدم له كلمات مثل: الصديق، الأخت، الأخ، كما ترد في بعض الأحيان مقترنة بياء المتكلم: صديقي، أخي، أخي وصديقي، أو مقترنة بصفة معينة مثل: الأخ الكريم، الصديق العزيز، الزميلة الموقرة،

1- اللسان والميزان، ص: 241

2- كلمات تقديم، ج. 1، ص 19

الدارس الفاضل، الصديق الحميم...، وتعكس مختلف هذه الاستعمالات تواضع الأستاذ أمام الطالب.

ج- الدعاء: يلاحظ القارئ اختتام التقديمات بالدعاء لمؤلف الكتاب بالتوفيق والسداد. وقد تبدو هذه الملاحظة غير مجدية ولكن تواترها في سائر التقديمات يجعل منها ظاهرة أسلوبية تستحق العناية والاهتمام.

وتكتسي هذه الظاهرة قيمتها من مرجعيتها الدينية، ولهذا يحضر اسم الجلالة في بعض الأدعية أو يحذف لدلالة الحال عليه، كما أن للداعي مكانة تجعل لدعائه قيمة رمزية إذ هو أقرب إلى رضا الوالدين أو دعاء الشيخ للمريد.

وكيفما كان الحال، فإن الدعاء يقوم هنا بثلاث وظائف هي:

- ترسيخ المحبة بين الأستاذ والطالب.
- تزويد الطالب بطاقة روحية أو على الأقل بشحنة عاطفية تساعد على الاستمرار في العمل.
- اعتبار عمل الطالب ضرباً من العمل الصالح الذي يقترب من العبادات إن لم يكن أحد تجلياتها.

سادساً: الوسائل اللغوية التي أنشئت بها التقديمات

أنطلق هنا من قناعة راسخة بضرورة الاهتمام بالوسائل اللغوية التي تبليغ بها المضامين، وخاصة المتعلقة باللغة الواصفة كما هو الحال بالنسبة لكلمات التقديم.

ولعل أول ملاحظة تثير انتباه القارئ هنا هي الوضوح وهو أعز ما يطلب في الكتابة العربية المعاصرة. ويكشف وضوح التقديمات عن أمرين مهمين:

1- وضوح الرؤية لدى المؤلف، لأن ما يرى بوضوح يعبر عنه بوضوح.

2- رغبة المؤلف في التواصل مع القارئ، سيما وأنه يقوم بدور "الوسيط" بينه وبين المؤلف الذي يقدم له.

الملاحظة الثانية تتعلق بما اصطلح عليه السكاكي في كتابه "مفتاح العلوم" بـ "تربية الفائدة" ؛ بمعنى نمائها، وتحقق تربية الفائدة عن طريق الجمل الطويلة. ويلاحظ أن الأستاذ الجراري يوظف كثيرا الجمل الطويلة، ما يعني أن طول الجملة عنده خصيصة أسلوبية. وغالبا ما تطول الجملة عن طريق الشرط سواء كان صريحا بأداة الشرط أو ضمنيا بالتعبير عنه بكيفيات أخرى.

بعض المقاطع التي تشكل نواة لسيرة باحث مؤسس للأدب المغربي بالجامعة المغربية.

3- تصدر التقديمات عن أصل أخلاقي يغذيه إحساس حاد بالمسؤولية ونزوع نفسي إلى لم الشمل ؛ شمل الباحثين وشمل المغاربة، وشمل العرب والمسلمين كافة.

4- تبدو كلمات التقديم كغيرها من مؤلفات الأستاذ الجراري مسكونة بالهوية، ويتراوح حضورها بين الإشارة والعبارة.

وأقترح، في نهاية العرض، على الأستاذة الفاضلة حميدة الصايغ إكمال هذا المشروع المفتوح بنشر مقدمات سائر مؤلفات الأستاذ الجراري نفسه حتى يتمكن الدارس من مقابلتها بكلمات التقديم هاته واستخلاص مظاهر الائتلاف والاختلاف بينهما، آنذاك ستكتمل صورة صنعة المقدمات لدى الأستاذ الجراري.

الرباط، في 9 محرم الحرام 1437هـ

الموافق 23 أكتوبر 2015م

عبد الرحمان بن زيدان

تأليف:

د. سعيد بنسعيد العلوي

ذ. أحمد التوفيق

عباس الجراري

نشر أعلام المغرب

مطبعة إيديال 1998

بسم الله الرحمن الرحيم

في تاريخ المغرب -قديمه والحديث- أعلام أفذاذ نالوا من ثقافة عصرهم ما أهلهم لحمل المشعل وأداء الرسالة ؛ على الرغم مما قد توسم به هذه الثقافة من جمود وركود ؛ وعلى الرغم كذلك من الظروف الداخلية والخارجية التي قد تكون خلف ذلك، والتي غالبا ما تكون في حال اضطرابها باعثة على اليأس والإحباط.

ومن ثم، كان الكشف عن هؤلاء الأعلام وما نهضوا به لتجاوز واقعهم وما اعترضهم فيه من تحديات، خير ما يمكن التوصل به لاكتناه الحقائق وإدراك ما تحتزنه من خبايا أو يكتنفها من أسرار، والإمساك بعد هذا بخيط التواصل والامتداد في المسير الثقافي، مهما تكن عوائقه ومثبطاته وما ينتج عنها من تعثر أو بتر.

تحفزا من الوعي بأهمية هذا الكشف، بادرت مؤسسة "أونا" إلى إصدار سلسلة "أعلام المغرب" ساعية إلى تحقيق هدف علمي قائم على معرفة عميقة ودقيقة تستند إلى البحث والتنقيب والدرس، وساعية كذلك إلى تبسيط هذه المعرفة واختزالها وتقريبها إلى عموم القراء، وإشاعتها بين غير المتخصصين من الراغبين في اكتساب ما ينمي ثقافتهم ويكملها في أبعادها المتعددة وأنماطها المتنوعة.

وقد نشرت من هذه السلسلة عددين، كان أولهما عن "المختار السوسي"، وكان الثاني عن "عبد الله كنون"؛ وهما معا من العلماء والأدباء الذين كان لهم دور كبير في النهوض بثقافة المغرب، تحصيلا وتبليغا وإبداعا، حاملين في غير تباطؤ أو توان مشاعل أناروا بها السبل المدلهمة والدروب الحالكة، وفتحوا من خلال ذلك البصائر والأبصار، وصقلوا الأذهان والأفكار.

في هذا السياق، تقدم المؤسسة عددا جديدا من السلسلة، للتعريف بأحد أولئك الأفاضل، هو أبو زيد عبد الرحمن بن زيدان الذي أدى رسالته الثقافية على نحو قل له نظير؛ مع تفرد عن الأقران بمميزات حفزته إلى اقتحام مجالات كانت -بحكم ظروف المرحلة- تشكو التهميش وتعاني الإهمال.

فبفضل انتمائه إلى الأسرة الشريفة التي كان نقيبها في مكناس، وكذا بفضل ما ناله من ثقافة العصر، وما كان يستبد به من طموح علمي وأدبي، تسنى له أن يضع اليد على الدفين من الوثائق والمخطوطات، وأن يحرر -استنادا إليها- كتابات قيمة عن هذه المدينة وعن الدولة العلوية وملوكها ومن نبغ في أحضانها؛ مع عناية خاصة بالتعبير الأدبي، شعره ونثره، وفق ما كان متداولاً من موروته؛ وكذا مع اهتمام نادر بما يجعل العلماء

والأدباء يقصدونه من كل حذب وصوب، ويلتفون حوله، مفيدون من مكتبته وناديه، ومن كرم مائدته كذلك.

وحتى يتسنى تقديم هذه الشخصية البارزة على نحو واف و متكامل، فقد ركز الكتاب على جوانب ثلاثة، منها تشكلت أقسامه التي جاءت كالآتي:

قسم خاص بالترجمة لابن زيدان، في بيوبليوغرافيا تقصد إلى التعريف بحياته وإنتاجه. وقد أنجزه الأخ الكريم، قيديم كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس -أكّدال- الرباط، الأستاذ الدكتور سعيد بنسعيد العلوي الذي هو، بالإضافة إلى الروابط الأسرية التي تصله بابن زيدان، عالم متمكن وباحث مدقق، مع رحابة صدر وسعة أفق وأصالة متجددة.

قسم منصب على الميدان الذي اشتهر فيه ابن زيدان، وهو التاريخ الذي كان فيه يحتل مركز مؤرخ المملكة، وإن لم يكن لهذا المنصب وجود يومئذ. وقد حرره الصديق العزيز الأستاذ السيد أحمد التوفيق، محافظ الخزانة العامة بالرباط، وهو خبير ثبت بتراث المغرب ودارس متعمق فيه، مع بعد نظر وحصافة رأي.

قسم مهتم بالجانب الآخر الذي كان يعنى به ابن زيدان، والذي تمثل عنده في المجال الأدبي بشعره ونثره، وفي المجلس الزيداني بمكتبته

وناديه وما كان لهما من تأثير في إبراز ملامح إيجابية للثقافة المغربية. وقد سعدت بكتابة هذا القسم، جاهدة في محاولة لمّ أطراف موضوعه، بما يتفق والمنهج العام الرامي إلى التبسيط والاختصار، على ما في هذا الموضوع من مادة وافرة وأحكام عليه سابقة.

وإني لأشعر ببهج كبير، إذ أقدم لهذا الكتاب الثالث من سلسلة "أعلام المغرب" بعد أن قدمت للأول منها ؛ آملا أن يحقق الغايات المتوخاة من إصدارها، وأن يكون كذلك إضافة غنية للدراسات المغربية، ولا سيما للتعريف بابن زيدان الذي لم يلتفت إليه الباحثون بما يتناسب والموقع الذي كان له في الساحة الفكرية.

ولعلي أن أزجي -باسمي ونيابة عن شريكي المؤلفين- أصدق عبارات الشكر والتقدير لمؤسسة "أونا" وهي تتابع إخراج هذه السلسلة بعزم نابع من الإيمان برسالة الثقافة.

وأود بعد هذا أن أعرب عن أخلص آيات الثناء والتنويه للصديق الفاضل مدير الخزانة الحسنية، الأستاذ الدكتور أحمد شوقي بنبين الذي أمدني بجميع ما كنت أريد الاطلاع عليه من مخطوطات زيدانية ؛ وأن أفصح عن المشاعر نفسها للأخ العزيز الأستاذ أحمد التوفيق الذي مكنني من الوقوف على ما يوجد من هذه المخطوطات في الخزانة العامة ؛ وكذا للزميل

الكريم الأستاذ الدكتور سعيد بنسعيد العلوي الذي يسر لي منها بعض ما في
حوزة أسرته الشريفة.

وبالله العون والتوفيق.

الرباط، في 29 رجب 1419هـ

الموافق 19 نونبر 1998م

كتاب مهرجان تالكجونت

تكریم مؤرخ سوس
الأستاذ أحمد بزید الكنسانی

قید الطبع
منشورات منتدى الأدب لمبدعی الجنوب

بسم الله الرحمن الرحيم

على الرغم من السمات الوجودية التي تميز المغرب، عبر القيم والمقومات التي شكلت هويته على امتداد التاريخ وما زالت تشكلها، مرتكزة على ثوابت ومقدسات، فإن المتأمل في تلك السمات لا يلبث أن يلاحظ مدى استمداها من ظاهرة التنوع والتعدد البارزة في بيئته الطَّبعية والبشرية، وكذا مدى اغتنائها بهذه الظاهرة. وتعتبر الثقافة بمختلف مكوناتها العلمية والأدبية والفنية والسلوكية في طليعة عناصر هذا الاغتناء، إن لم تكن أهم ملامحه.

من هنا لم يكن تاريخ المغرب -من حيث هو وقائع ومواقع وأعلام ومواقف- مقصوراً على حواضر بعينها وقع التركيز عليها فجاءت صورته للأسف ناقصة ومبتورة، حتى لا أقول مشوهة أو مزيفة. وهو ما حث النابهين من علمائه المتنورين إلى إيلاء عناية بما كان للمدن والأقاليم التي ينتمون إليها، فعرفوا بما كان لها من إسهامات في صنع هذا التاريخ، وما قدمه أبنائها من أعمال جليلة تجعل المطلع عليها يكتشف خبايا غميسة وأسماء مغمورة، من خلالها يتلمس إمكانات تصحيح تلك الصورة. وهو ما نصادف أمثلة له عند بعض القدماء الذين كتبوا تواريخ عن حواضر بعينها،

كابن القاضي عن فاس، وابن القاسم الأنصاري عن سبتة، وابن غازي عن مكناس، وآخرين كثيرين.

في سياق الوعي بهذا النهج الإقليمي، كتب بعض المعاصرين تواريخ محلية هامة، يُذكر من بينهم عبد الرحمن بن زيدان في "الإتحاف" عن مكناس، وعباس بن إبراهيم في "الإعلام" عن أعلام مراكش وأغمات، ومحمد الكانوني عن "أسفي وما إليه"، ومحمد داود عن "تطوان"، وأحمد بن الحاج الرجراجي في "الشموس المنيرة" عن الصويرة، ومحمد بوجندار في "الاغتباط" عن الرباط، ومحمد بن علي دينية في "مجالس الانبساط" عن الرباط كذلك، ومحمد بن علي الدكالي في "الإتحاف الوجيز" عن العدوتين الرباط وسلا، وعبد الله الجراري عن "أعلام الفكر المعاصر" بهاتين العدوتين، ومحمد المختار السوسي في "المعسول" عن سوس؛ تغمدهم الله جميعا بوسع رحمته وجزيل مغفرته.

*** **

وللمكانة المتميزة التي لهذا الإقليم السوسي، فقد خصه مؤرخوه بكتابات جزئية عن بعض مناطقه وما كان لها من دور في نهضة المغرب وازدهاره، والحفاظ على تراثه والحرص على أصالته. فبالإضافة إلى ما دونه العلامة المرحوم محمد المختار السوسي في موسوعته "المعسول"، وفي "سوس العالمة"، فقد كتب عن "إيليغ قديما وحديثا" و "من خلال جزولة" وغيرها

من المؤلفات القيمة التي تؤكد ذلكم الدور ؛ وبالإضافة كذلك إلى ما دونه غيره من أمثال المؤلف الباحث محمد بن أحمد الأكراري رحمه الله في "روضة الأفتنان في وفيات الأعيان وأخبار العين"، فقد اتجه بعض الدارسين المعاصرين من الشباب إلى هذه المراكز بمزيد من الاهتمام، على نحو ما فعل الأخ الكريم الأستاذ مولاي الحسن الحسيني في التعريف بـ "تراجم أعلام تارودانت المعاصرين".

وما إخال هذه العناية بالحاضرة الرودانية إلا ناتجة عما تشهدده اليوم من تألق عمراني وثقافي، تأكيداً لما كانت عليه خلال التاريخ، إذ تعتبر العاصمة الأولى للسعديين الذين احتضنوا فيها عدداً كبيراً من الأعلام، قبل أن تعرف انطلاقاً علمية وأدبية في عهد الدولة العلوية، ولا سيما تحت ظل محمد العالم الذي اتخذها قاعدة له، بعد أن كان والده المولى إسماعيل قد عينه خليفة له في سوس.

وإنه ليكفي للدلالة على ما بلغته المدينة في هذا العهد، أن أشير إلى اثنين من أعلامها، كان لهم تأثير تجاوز ما لها من حدود:

أما أولهما فمحمد بن سليمان الروداني المتوفى مغترباً بدمشق عام أربعة وتسعين وألف للهجرة، الموافق ثلاثة وثمانين وستمئة وألف للميلاد. وهو صاحب الكرة الفلكية التي سماها "الآلة الجامعة" والتي وصفها في كتاب "النافعة في الآلة الجامعة".

وأما الثاني فالطيب الروداني المتوفى سنة اثنتين وثمانمائة وألف للهجرة الموافقة خمساً وستين وثمانمائة وألف للميلاد. وهو الذي مر بمصر أثناء عودته من رحلة الحج، ومنها حمل المطبعة التي توصف بـ "الحجرية"، والتي أطلق عليها "الفاسية" بعد أن انتقلت إلى مدينة فاس.

*** **

في هذا الإطار التعريفي بأعلام تارودانت، يأخذ مكانه البارز هذا السفر الجليل الذي وضعه الصديق العزيز الباحث المتمكن الأستاذ أحمد بزيد الكنساني عن "الحياة العلمية والأدبية بتارودانت وأعلامها في خمسة قرون". ويعتبر سجلاً حافلاً لهذه الحياة، استطاع المؤلف القدير أن يتتبعها قرناً بعد آخر، ويقدم لكل منها بتمهيد عام عن واقعه السياسي والفكري، قبل أن يستعرض أسماء النابغين فيه من فقهاء وعلماء وأدباء وصلحاء ومدرسين وخطباء ووعاظ، ومن إليهم ممن كان لهم دور في النهوض بهذه المدينة العريقة، وعددهم يتجاوز المائتين.

وإنه لعمل قيم لا تخفى مشقة إنجازها، لما يتطلب من تتبع دقيق لأولئك الأعلام، سواء في المراجع المخطوطة أو المطبوعة، أو ما هو مستفاد عنهم بالرواية الشفوية. وهي صعوبة تتجلى في تراجم الكتاب المتراوح حجمها بين طول فرضته المادة المتوافرة يصل إلى عدة صحائف، وبين قصر لا يتجاوز سطرين، ولكنها جميعاً تبرز ما كان للحاضرة الرودانية في

المجال العلمي والأدبي طوال فترة غير يسيرة عرف المغرب فيها تقلبات وتطورات أفقت -على ما فيها من ثغرات- إلى نهوض ثقافي ما كان ليكتمل المنظور الحق إليه، لولا مثل هذا الكتاب الهام الذي أضافه السيد بزيد إلى الخزانة السوسية الثرية التي أغنت وتغني ما تضمه خزائن المغرب من ذخائر، وما يصدره باحثوه المجدون من دراسات إقليمية، ولا سيما ما يتصل منها بالأعلام وما لهم من إنتاج.

ولعلي في غير حاجة إلى أن أنوه بالجهود العديدة والحميدة التي يبذلها في هذا المضمار، والتي أشهد أنه كان بدأها بكثير من الغيرة والحماس منذ كان يختلف إلى فصول كلية الآداب بظهر المهراس في فاس قبل نحو من أربعة عقود. وإن من آثار هذه الجهود ما نشر عن محمد بن سليمان الروداني، وعن تاريخ المدينة في القرن الثامن الهجري، وفي هذا العصر السعدي، وعن وليها صالح بن واندالوس، وعما خص به الأطلس الكبير من بحث هام، إضافة إلى إبداعه الشعري الرائع، وإلى عنايته بملحون المدينة وبعض فنونها الشعبية.

ولا أريد أن تفوتني مناسبة هذه الكلمة التقديمية من غير أن أنوه كذلك بالمؤسسة الأدبية التي أحدثها السيد الكنساني مع ثلة من رفاق الأدب الأفاضل، للنهوض بإنتاج مبدعي سوس والصحراء المغربية، والتي أطلقوا عليها: "منتدى الأدب لمبدعي الجنوب". كما لا أريد أن تفوتني هذه

الفرصة، دون أن أعرب عن اعتزاز "النادي الجراري" بالتوأمة التي عقدها مع هذا المنتدى الناشئ.

لهذا وغيره، فإني أود أن أهنئ الصديق العزيز الأستاذ أحمد بزيد على إصدار هذا الكتاب القيم، وأن أثني على كل الجهود التي يبذلها، وأن أدعو العلي القدير أن يزيده من مدده وفضله، ويديم عليه عونه وتوفيقه.

والله من وراء القصد.

الرباط، في 16 جمادى الثانية 1431هـ

الموافق 31 مايو 2010م

الرباط مدينة الثقافة والفنون

منشورات

كلية آداب جامعة محمد الخامس - أكّال - الرباط

بمناسبة مرور 100 سنة على اختيار الرباط عاصمة للمغرب

طبع دار أبي رقرق - الرباط - 2014

بسم الله الرحمن الرحيم

معروف تاريخياً أن الحواضر التي اتخذتها الدول الإسلامية التي تعاقبت على الحكم في المغرب عاصمة لها، هي فاس في العهد الإدريسي، ومراكش في ظل المرابطين والموحدين، قبل أن تعود فاس مع المرينيين، ومراكش مع السعديين، ثم فاس مرة أخرى في عهد العلويين، باستثناء فترة المولى إسماعيل الذي نقل قاعدة الملك إلى مكناس، لتعود بعده إلى فاس التي وُقِعَ فيها عقد الحماية عام 1330هـ الموافق 1912م.

وهو التاريخ الذي انتقلت فيه العاصمة إلى الرباط التي تم اختيارها في هذا الطرف العصيب، لما لها من ماضٍ مجيد عريق، ولما تضمه من مآثر تاريخية ومنشآت عمرانية ومواقع دفاعية ومؤسسات تجارية ومراكز سفارية وقنصلية أجنبية، ولما أحدثه فيها الملوك العلويون من قصور وأبراج، وما شيّدوا من مساجد تعزز بها ما كان فيها من زوايا ومساجد لم تكن تفتقر فيها حلقات الذكر والعلم.

ومنذ هذا التاريخ، مرت مائة عام عاش المغاربة أقل من نصفها يواجهون الحماية ويناضلون للتحرر منها، واسترجاع الاستقلال الذي أخذوا في بنائه -وما زالوا حتى الآن- يغنون هذا البناء، مواصلين ما قام به

بطل التحرير جلاله الملك المجاهد محمد الخامس¹ طيب الله ثراه،
ومانهض به جلاله الملك الحسن الثاني² نور الله ضريحه من مشروعات
خالدة يتابعها صاحب الجلالة الملك سيدي محمد السادس³ أيده الله
ونصره، ويغنيها بالتطوير والتجديد والتحديث، سائراً بالمغرب في طريق
الرقى والتقدم والازدهار.

ومن ثم كان حقيقاً بالمغاربة أن يحيوا ذكرى مرور هذا القرن الحافل،
ويحتفوا بما أبرزته الرباط وهو يواكبها عاصمة للمغرب الجديد، خاصة بعد
أن اختارتها اليونسكو هذا العام (2012) "عاصمة عصرية ومدينة تاريخية
وتراثا للتقاسم"، وصنفتها ذات "قيمة استثنائية وتراثا عالميا يعكس ثقافات
إنسانية كبرى".

وإسهاماً في هذا الإحياء والاحتفاء، بادرت كلية آداب
جامعة محمد الخامس-أكدا- بتوجيه من رئيس الجامعة الأستاذ الدكتور
وائل بنجلون وعميد الكلية الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بنحادة، إلى نشر
كتاب عن الرباط شارك في كتابة فصوله نخبة من الأساتذة الباحثين، على
أن يصدر في ثلاثة أجزاء، يكون أولها عن تاريخ المدينة، والثاني عن

-
- 1- ولد في 23 رجب 1327هـ=10 غشت 1909م، وبويع بعد وفاة والده المولى يوسف في 22 جمادى الأولى 1346هـ=17 نونبر 1927م، وتوفي يوم 10 رمضان 1380هـ=26 فبراير 1961م.
 - 2- ولد فاتح صفر 1348هـ=9 يوليوز 1929م، وبويع مباشرة بعد وفاة والده وتمت توليته رسميا في 15 رمضان 1380هـ=3 مارس 1961م. وتوفي يوم 9 ربيع الثاني 1420هـ=23 يوليوز 1999م.
 - 3- ولد فاتح ربيع الثاني 1383هـ=21 غشت 1963م، وبويع مساء وفاة والده.

حياتها الاقتصادية والاجتماعية وما إليها من عمران، والثالث عما تزخر به من ثقافة. وهو هذا الجزء الذي يسعدني أن أقدمه للقراء الكرام، بعد أن سعدت بالإشراف على إعداده.

والحديث عن الثقافة قد يجعل المقبل على قراءة هذا الكتاب، يثير سؤالاً مبدئياً عن المفهوم الذي كان شائعاً عن هذه الثقافة في المغرب طوال قرن من الزمان منذ أصبحت الرباط عاصمة.

والحق أنه ليس سهلاً تحديد هذا المفهوم الذي يتأرجح على امتداد هذه المرحلة، بين مدلوله المقترن بالحضارة أو المقابل لها، وبين كونه جامعاً للإنتاجات العلمية والفكرية والإبداعات الأدبية والفنية؛ مع عدم إغفال عنصر التسوية والتقويم والحدّاقة والفتّانة الكامن في المعنى الأصلي للكلمة.

وهو مفهوم شهد ويشهد باستمرار تطويراً وتجديداً بحكم طول الفترة، وتطور المعارف وتجدد مناهجها، ولا سيما في المجالات الإنسانية، من غير أن يفقد بعده التقليدي المتمثل في رافده الغني الأصيل المرتبط بما كان منتشرًا -وما زال- من تراث علمي وسلوكي، سواء على المستوى المدرسي أو الشعبي، وإن كان طاغياً فيه طابع التريديد والنقل على طابع العقل والنقد.

على أن هذا الارتباط -رغم عدم تخلص المجتمع من الأمية- لم يحل دون مساهمة مختلف مظاهر التحديث وما لها من انعكاسات على الفكر والإبداع، بدءاً مما اكتسبه المغرب من الاتصال بنهضة المشرق العربي في البدايات، إلى ما تزخر به عطاءات الغرب التنويرية بعد ذلك، وخاصة في الميادين المستحدثة وما تقدمه من معارف وابتكارات وتقنيات، زاد في إشاعتها وتأثيرها انتشار الاستعمالات الرقمية، والتوسع في مؤسسات التربية والتعليم بمختلف مراحلها الابتدائية والإعدادية والثانوية والمهنية، وكذا إنشاء الجامعات العصرية ومعاهد البحث الأكاديمي، ومراكز تدريس اللغات الأجنبية ؛ إضافة إلى العناية بجامعة القرويين وما إليها من معاهد أصيلة ومدارس عتيقة، على ما في بعض هذه المنشآت من ضعف وتعثر.

وعلى الرغم من أن هذا المنظور للثقافة يبدو تقريبياً ومتطوراً باستمرار، فإنه قد يعين على إدراك الثابت والمتحول في مسيرة هذه الثقافة التي سعت العروض القيمة التي يضمها هذا السفر النفيس إلى إبراز أهم ملامحها، من خلال ظواهر وقضايا معينة ؛ إذ كان متعذراً -وظرف المناسبة ضيق ومحدود- أن يتم الوقوف عند غيرها لاستكمالها، مما كان لا شك سيقدم رؤية أشمل وأوضح عن مدينة الرباط، وما لها من تميز في مختلف السوح الثقافية.

ولعلي أن أشير في هذه الكلمة التقديمية إلى بعض ما أغفل ذكره عن هذا التميز الذي كانت له بوادر قبل أن تصبح الرباط قاعدة تنطلق منها نهضة المغرب الحديث، بدءاً من الحقل الثقافي، على الرغم مما كان يعانیه هذا الحقل في القرون المتأخرة من تدهور بسبب عوامل خارجية وظروف داخلية هي التي مهدت لدخول الحماية وفرضتها.

وإنه لإبراز ما كان عليه المجال العلمي والأدبي عند هذا الدخول، وكذا قبيله أو بعيدة بقليل، يكفي أن أشير إلى معلمة المرحلة ومجدها ابراهيم التادلي (ت 1311هـ=1894م) شيخ الرباط، وعلامته في مختلف العلوم والفنون، بداية من التفسير والحديث والفقه واللغة والنحو، إلى الهندسة والجغرافيا وعلوم البحر والموسيقى والسياسة ؛ وأن أذكر بعض أسماء الأعلام، كالشاعر الصوفي الزجال أحمد بن عاشر الحداد (ت 1326هـ=1908م)، والعلامة الأديب أحمد بن محمد الزعيمي (ت 1329هـ=1911م)، والشاعر المبدع أحمد بن قاسم جسوس (ت 1331هـ=1912م)، والعلامة المؤلف محمد بن عمر دينية (ت 1332هـ=1913م)، والأديبين الشاعرين محمد بن يحيى پلامينو وعبد القادر لبريس (المتوفيين 1333هـ=1914م)، والقاضي النوازلي أحمد بن محمد بن ابراهيم (ت 1334هـ=1915م)، والقاضي العلامة أحمد ابن محمد بناني (ت 1340هـ=1921م)، وعميد شعراء الملحنون في عصره الشيخ أحمد الكندوز الذي توفي عن سن عالية حوالي 1344هـ=1925م، والفنان

التشكيلي الرائد محمد بن علي المولود في 1861م والمتوفى عام 1358هـ=1939م.

أما النهضة الحديثة، فقد انطلقت من الحركة السلفية الإصلاحية التي تزعمها من الرباط أبو شعيب الدكالي الصديقي (ت 1356هـ=1937م) الذي صادف ظهوره بداية عهد الحماية، وقد تولى منصب القضاء ثم وزارة العدلية. فكان أن التف حوله نخبة من المثقفين الشباب الذين رفعوا عبر الكتابة وحملات التوعية لواء الدعوة إلى الكتاب والسنة ومحاربة الشعوذة والانحراف. وهو ما وُلدَ وعياً جديداً حث على العناية بالتعليم، والعمل السياسي الذي أتاح للصحافة أن تزدهر وتفتح المجال لألوان من الكتابة النثرية والشعرية، ولا سيما فن المقالة.

وفي هذا المناخ كان لبعض المناسبات الوطنية، وخاصة حفلات عيد العرش، أثر كبير على تطور تلك الكتابة. ومعروف أن الاحتفال بهذا العيد بدأ رمزياً عام 1933م، ثم رسمياً في السنة الموالية، وكانت قد تأسست للدعوة إليه وتنظيمه لجان في الرباط وفاس ومراكش، على إثر انعقاد المؤتمر الثالث لطلبة شمال إفريقيا المسلمين في هذا العام. وقد كانت تصدر في هذه الذكرى السنوية مقالات وقصائد يتبارى الأدباء بها لنيل الجوائز التي كانت تخصص للفائزين الذين كانوا يلقون إبداعاتهم على أمواج الإذاعة مشمولة بالرعاية الملكية السامية.

هذا بالإضافة إلى ما كان يُنظّم من أناشيد وطنية كانت تتردد أصداءها في المدارس الحرة والمخيمات الصيفية، وكذا في الأعراس وسائر التجمعات، مما زاد في إغناء التعبير الشعري، سواء في أشكاله أو مضامينه.

في هذا السياق المفعم بروح التطوير والتجديد، وعلى الرغم من ضعف التجربة وقلة الإمكانيات، ظهرت للمسرح منذ سنوات العشرين أعمال رائدة وفرق وطنية هاوية في بعض المدن المغربية، يشار منها في الرباط إلى الجوق المغربي للتمثيل العربي الذي أسسته عام 1927 جمعية (مدرسة العاصمة الرباطية) بإشراف محمد اليزيدي (ت 1410هـ = 1989م)، وجوق السعي والفضيلة لعبد الله بن العباس الجراري (ت 1403هـ = 1983م) الذي كان نال عن مسرحيته "إلى الفضيلة" جائزة جمعية قدماء ثانوية المولى إدريس بفاس، وكانت قد دعت عام 1928م إلى مباراة للتأليف المسرحي، مما عُد يومئذ حدثاً ثقافياً بارزاً.

ولم يلبث هذا الفن أن عرف بعد ذلك تألقاً بفضل الكُتاب والمخرجين والممثلين الذين بذلوا -وما زالوا يبذلون- جهوداً كبيرة وحثيثة للنهوض بالمسرح، عبر التأليف والترجمة والاقْتباس والمغامرة بالتجريب، مع العناية بالتراث الشعبي المغربي وتوظيفه.

وليس يخفى أن هذا التراث غني بأشكال مسرحية أذكر من بينها ما كان معروفاً بالرباط في العقد الأخير من القرن التاسع عشر والعقود الأولى من

القرن العشرين بـ "سيدي الكتفي" ؛ وكان شائعاً بين الصانع التقليديين، ولا سيما منهم ممتهني الخرازة. وهو عبارة عن مشهد فكاهي على شكل "حلقة" يرأسها "مقدم"، وفيها تلتئم جماعة من المشاركين الذين يدخلون عليه واحداً تلو الآخر، على أن يضربه كل داخل على رأسه ويشتمه ؛ في حين يأخذ هو في نصحهم وقراءة الفاتحة قبل الدعاء على صاحب المنزل، وهم يؤمنون على ما يدعو به من سب وشتم.

ثم إن هذا التراث، وخاصة منه ما يتصل بالثقافة، غني بأنماطه المتعددة والمتنوعة في المغرب، بدءاً من العادات والتقاليد إلى التعبيرات الشفوية المتمثلة في الأشعار والأذكار والحكايات والأمثال والأحاجي وسائر المرددات، إلى جانب الرقص والرسم والألعاب وأشكال الإيقاع المختلفة. ولمدينة الرباط فيها جميعاً رصيد هائل يحتاج إلى أن يفرد له كتاب آخر يشمل بعض العروض التي قد تتناول ما لم يتيسر بحثه من موضوعات تتصل بثقافة هذه المدينة، من خلال ما أشرت إلى بعضه، إضافة إلى ما كتب عنها الأجانب بمختلف اللغات، وكذا غير الرباطيين من المغاربة، وإن اكتفى الكتاب الحالي بما صدر عن الجيران السلويين وأهل الصحراء.

وبعد، فلعلي في ختام هذه الكلمة الوجيزة أن أعبر عن كبير اعتزازي بتقديم هذا السفر النفيس والإشراف على إنجازه، وأن أعرب عن خالص شكري وصادق تقديري للزملاء الكرام الباحثين الأجلاء أصحاب العروض

القيمة التي شكلت غناه، وكذا لسيادة رئيس الجامعة الموقر والسيد عميد كلية آدابها المحترم على مبادرتهما، وما بذلا من جهد حثيث لإصداره، إضافة غنية للمكتبة المغربية وما تضم من تراث زاخر عن الرباط.

والله ولي التوفيق.

الرباط، في 12 صفر الخير 1434هـ

الموافق 26 دجنبر 2012م

هذه مذكراتي
للعلامة المرحوم عبد الله الجراري

دراسة و تحقيق :
الدكتور مصطفى الجوهرى

منشورات النادي الجراري رقم 60
طبع دار أبي رقرق - الرباط - 2013

بسم الله الرحمن الرحيم

حين حمل إليّ الأخ الكريم الأستاذ الباحث السيد مصطفى الجوهري هذه المذكرات، وهي في المراحل الأولى للطبع، بقصد كتابة تقديم لها، وكان قبل ذلك قد أخبرني بالعزم على إخراجها، أحسست بسعادة غامرة وبهيج فائق. وذلك لما لها في نفسي وفكري من مكانة كبيرة، مردّها إلى أنها من تأليف السيد الوالد، وأنها تخص مراحل من حياته رحمه الله، وما يرتبط بها من وقائع وأحداث وقضايا ومواقف؛ إضافة إلى أنها ذات قيمة علمية وأدبية عالية، وأن لي معها علاقة وطيدة تشدني إليها أكثر من مؤلفاته الأخرى التي سبق لي تحرير مقدمات لبعض ما نشر منها.

ويزيد في هذا الإحساس، ما لي مع دارسها ومحققها الصديق الحميم الدكتور الجوهري، من ود خالص لشخصه العزيز، وتقدير عميق لنشاطه الثقافي والجمعوي المتنوع، ولبحوثه العلمية العديدة وما يبذل من جهود حثيثة لنشر التراث الجراري العزيز.

كل هذا جعلني أعتز بإصدار هذه المذكرات ضمن ما ينشره النادي الجراري، وهي التي طالما وقع سؤال الباحثين عنها، من الراغبين في الاستفادة منها، وهي ما تزال في نسختها المخطوطة أو المرقونة.

ولعل ما يمكن أن يتبادر إلى ذهن المقبل على قراءتها، هو التساؤل عن المفهوم الذي كان عند الكاتب وهو يُقَدِّم على هذا الجنس الأدبي الذي قيل كلام كثير عن مدى أصالته أو استحدثه عند المغاربة خصوصاً والعرب على وجه العموم.

والحق أنه إذا كان يوجد تراث وافر من كتابة أدب المذكرات أو فنّها عند أدباء الغرب، فإنه يوجد كذلك إنتاج مثله أو شبيهه به عند المؤلفين العرب والمغاربة، من خلال كتب التراجم والفهارس والرحلات والمدونات التاريخية.

وربما كانت المذكرات أقرب إلى تدوين التاريخ، لما يكون فيها من سرد وقائع وأحداث. ومثلها الرحلات التي تلتقي بالسيرّة الشخصية، عبّر ما يكون فيها من تدخل الكاتب في مشاهداته، وما يكون له من انطباع عنها. وهو نفس ما قد يلاحظ حين يؤرخ لتلك الوقائع والأحداث.

من هنا تصبح كتابة المذكرات جامعة بين الموضوعية والذاتية، ولا سيما إذا عرّف الكاتب فيها بنفسه، وأشار إلى أعماله أو بعضها، وما أثر فيه من عوامل خارجية، كالبيئة على سبيل المثال. وقد يصل الأمر إلى ما يدخل في إطار الاعتراف، سواء كان له أو عليه.

وبذلك تصبح هذه الكتابة مجالاً يتيح معرفة أوسع وأعمق بصاحبها من أعماله الأخرى؛ وقد تكون تأكيداً لما في هذه الأعمال، حين تتضمن

المذكرات بعض ما يكون تكراراً لما في تلك الأعمال. وهو ما يجعلها لصيقة بالسيرة الشخصية أو الذاتية المصطلح عليها بالأوتوبيوغرافيا Autobiographie التي هي في الحقيقة كتابة أدبية تسعى إلى التوثيق، أي توثيق ذكريات مؤلفها، لما لهذه المذكرات من صلة بالفترة التي أطرتها.

هذا، إذا كان -هو- كاتب سيرته، أما إذا كان -غيره- هو من يكتبها، فالأمر يختلف ويتخذ منحى آخر. كما أنه يختلف حين تُتخذ الرواية عند بعض الأدباء اليوم قالباً أو جنساً لسرد السيرة الشخصية، علماً بأن للرواية متطلباتها المعروفة.

ويبدو لي أن السيد الوالد في "هذه مذكراتي" كان مدركاً للربط بين ما هو موضوعي وما هو ذاتي، وأكاد أقول إنه كان قاصداً إلى ذلك، مما هو واضح منذ البداية حين تحدث عن نسبه وولادته ودراسته وما إليها مما يتصل بحياته الخاصة، قبل أن ينتقل إلى الحديث عن مهامه التربوية والتعليمية والرسمية، وما عاش في عصره من قضايا سياسية واجتماعية وعلمية وأدبية وفنية، وما كان له فيها من دور يبرز سعة ثقافته وغنى تجاربه ؛ في التزام بروح ديني ووطني، هو على صرامته لا يخلو من تفتح وتسامح.

وتكاد موسوعيته النادرة أن تكون لافتة للنظر في مذكراته، مع ما له رحمه الله من قدرة فائقة على الاستحضار والسرود والتحليل وإبداء الرأي، وكذا على المشاهدة والالتقاط، برؤيا واضحة وبوعي وصدق وصراحة.

وهو مما لا شك كان يثير صعوبة في الدراسة، ولا سيما في التحقيق ؛ بما يقتضي من تعريف بأسماء الأعلام الكثيرة، وتوثيق الشواهد والإحالات العديدة، وما إليها من نقول أو إشارات لمخطوطات ومدونات ومسموعات، مما كان يستدعي دقة التحري والتثبت، وتوسيع دائرة المصادر والمراجع.

وذلكم ما نهض به أخي وصديقي الأستاذ الدكتور مصطفى الجوهري، على نحو قلّ نظيره، مما يستحق به خالص الشكر والتقدير وعاطر الثناء والتنويه ؛ مع الدعاء له باطراد السداد ودوام التوفيق.

والله الهادي إلى طريق الصواب.

الرباط، في 20 ربيع الأول 1434هـ

الموافق 2 فبراير 2013م

الفنون الغنائية

بوادي درعة

للأستاذ محمد البوزيدي

منشورات الثقافة الجنوبية

أكادير 2013م

بسم الله الرحمن الرحيم

لعل من أبرز ما يلفت نظر المطلع على ثقافة المغرب، فضلاً عن دارسها والمهتم بالبحث العلمي في مختلف جوانبها، تميزها بظاهرتي التعدد والتنوع وما ينشأ عنهما من ثراء فكري وأدبي وفني يمس جميع ميادين هذه الثقافة، سواء في آفاقها العالمة المدرسية، أو في أبعادها العامية الشعبية.

وإنه ليكفي أن يقوم الراغب في الوقوف على هذه الحقيقة بجولة في التراث المكتوب أو الشفوي لأي إقليم في المغرب، بل لأية حاضرة أو قرية أو مجرد بادية نائية فيه، ليلاحظ في أبسط مظاهرها الأساسية وجود كتاب قرآني يشرف عليه فقيه "مشارط"، لتعليم القراءة والكتابة، وتحفيظ كتاب الله العزيز، وكذا وجود مسجد لأداء الصلوات وتلقين مواضع ودروس علمية للتوعية بالضروري من أمور الدين؛ إلى جانب ما قد يكون في هذه البادية من ألوان الفنون الإبداعية، غناءً ورقصاً وأمثالاً وأحاجي وحكايات، وما إليها مما يُتداول من مرددات.

ويكاد وادي درعة أن يكون من بين المناطق الزاخرة في هذه المجالات، بدءاً من تاريخه الحافل وما التأم حول نهريه من واحات وهضاب وتجمعات سكنية، كان فيها للفقهاء والصلحاء—على امتداد

الحقبة والعهد— حضور فاعل كبير، تكفلت بذكره والإشادة به كثير من المصادر المطبوعة والمخطوطة. وكان له بالإضافة إلى ذلك وبفضل موقعه ومنتجاته دور أساسي في حياته الاقتصادية والاجتماعية.

هذا، من غير أن نغفل ما كان له —وما زال— من مكانة إبداعية، ولا سيما في الأنماط الشعبية التي منها الفنون الغنائية التي هي موضوع هذا السفر الجليل الذي ألفه الصديق العزيز الأستاذ الباحث المتمكن السيد محمد البوزيدي، والذي يسعدني أن أكتب له هذه الكلمة التقديمية الموجزة.

فبفضل المعرفة الواسعة والعميقة للمؤلف الكريم بهذه الفنون، تسنى له أن يتتبع أنواعها من خلال النصوص والمعلومات التي بذل جهداً واضحاً في جمعها وتبويبها. وزاد فقام بتحليلها واستخراج ما هي عليه من أشكال، وما يحكمها من مقاييس فنية وتقاليد أدائية، في اهتمام بما هو مستمر منها وما هو مندثر أو يقاوم عوامل الاندثار؛ مع العناية بالمراجع التي اعتمدها للضبط والتوثيق.

وإذا كان مثل هذا البحث يغطي جانباً له قيمته في ثقافة الوادي المحلية، فإنه كذلك يشكل لبنة ثرية تكمل المنظور الوحدوي للثقافة المغربية؛ مما يستدعي مزيداً من الالتفات إلى بقية أنماط التراث الدرعي، وإلى ما تزخر به مختلف جهات الوطن.

وإني إذ أعرب عن فائق ابتهاجي بالاطلاع على مثل هذا العمل
العلمي الجاد، لأود أن أهني بإنجازه مؤلفه الفاضل أخي الأستاذ السيد
محمد البوزيدي، متمنياً له مواصلة جهوده في هذا الميدان، وداعياً له بدوام
التوفيق واطراد السداد.

والله من وراء القصد.

الرباط، في 6 شعبان 1434هـ

الموافق 15 يونيو 2013م

النور الإلهي

-الجزء الأول-

للأستاذ الشاعر عزّ الدين الإدريسي

مطبعة النجاح الجديدة -الدار البيضاء

-2015-

بسم الله الرحمن الرحيم

لعموم المسلمين عناية كبيرة بأسماء الله الحسنی الدالة على صفات حسن كامل مدح الله بها نفسه لا يشاركه فيها أحد. فهم يرددونها ويتغنون بها ويحفظونها ويدعون بها، لما لها من مكانة أبرزها القرآن الكريم في أكثر من آية، كقوله تعالى في سورة الأعراف: (ولله الأسماء الحسنی فادعوه بها). وهي مكانة زكّأها الحديث الشريف، مبشراً بجزء الدعاء بها، مع ذكر عددها فقال صلى الله عليه وسلم فيما ورد عند ابن حنبل في مسنده عن أبي هريرة: "إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة". وفي رواية أخرى لهذا الحديث عن ابن حنبل كذلك ذكر لهذه الأسماء، وإن استغربه الترمذي في سننه.

وقد اهتم المفسرون وعلماء العقيدة بهذه الأسماء، من حيث هي أساس معرفة الله عز وجل والإيمان به، فأثاروا حولها كثيراً من القضايا، كالنظر في توقيفيتها، وتحديد عددها المشار إليه في الحديث النبوي المذكور ؛ غير مستبدين أن يكون له غيرها، لا سيما وأنه تعالى استأثر بها في علم الغيب عنده ؛ وإن اتفقوا في الغالب على عدم اعتبار ما جاء من الصفات الواردة في القرآن الكريم والحديث الشريف على بعض الصيغ، كالمرتبطة بالجزء والعقاب، على نحو "الماكر".

وفي تفسير ابن كثير، نقلاً عن القاضي أبي بكر ابن العربي "أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم". وذكر ابن الحاجب "أن لله أربعة آلاف اسم، منها ألف لا يعلمه إلا الله، وألف علمه الله والملائكة، وألف علمه الله والملائكة والأنبياء، وألف منها ثلاثمائة في التوراة، وثلاثمائة في الإنجيل، وثلاثمائة في الزبور، ومائة في القرآن، تسعة وتسعون ظاهرة، وواحد أخفاه الله تعالى".

وقد أُشير إلى هذا الاسم ضمن الأشياء الأربعة الخفية المعدودة في أنظام بعض الفقهاء، كقول أحدهم:

وأخفيت الوسطى كساعة جمعة

كذا أعظم الأسماء مع ليلة القدر

ورغبة في التقريب والتخفيف من هذا الخفاء، وقع اعتماد بعض الأحاديث، كالذي ورد في مسند الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد، وصححه الترمذي، أن "اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: (والهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم)، و فاتحة آل عمران: (ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم).

كذلك اهتم العلماء بشرح أسماء الله الحسنی وتحليلها وتحديد دلالاتها وأسرارها، والانطلاق منها في أدعية وابتهالات. كما اهتموا بنظمها لتسهيل حفظها وترديدها والتغني بها ؛ وكذا شرح منظوماتها، في عناية

خاصة بذلك عند علماء المغرب قديماً وحديثاً، مما هو معروف ومتداول لا يتسع لذكره هذا التقديم الوجيز.

*** **

ولعل أحدث ما أبدعه الشعراء المغاربة في هذا المجال، ديوان الشاعر الملمم الكبير الأستاذ الشريف عز الدين الإدريسي الذي سبق له أن أغنى المكتبة الأدبية بأربعة عشر ديواناً.

وقد أبى إلا أن يتوج هذه الذخيرة الشعرية الغزيرة بهذا الديوان الذي وضعه في جزئين، وأدار نصوصه حول أسماء الله الحسنى، تحت عنوان دالٌّ هو "النور الإلهي".

ويتضح من أولهما — وهو الذي بين أيدينا — أن الشاعر اعتبره "كتاباً"، كما سماه في الكلمة التي أهداه بها لوالده. وهو في الحقيقة "ديوان" ابتهالات، و"كتاب" دعوات انطلق فيه من هذه الأسماء، وجعله مقسماً عليها. بل إنه لم يكتف بذلك، إذ استهل كل واحد منها باستعراض آيات قرآنية وأحاديث نبوية تتعلق به. وذلكم مجهود محمود بذله، وكأنه يقدم شحنة للقارئ قبل أن يفتح صدره لهذه الابتهالات والدعوات، وما قد يكون لها من تأثير عليه.

وتجدر الإشارة إلى أن الشاعر صاغها على نهجه المعروف وطريقته المعهودة، في أشطار قصيرة محررة من التفاعيل الخليلية، وغير مقيدة بوزن

أو قافية، ولا مثقلة بأشكال بيانية أو صور بديعية، إلا ما جاء من ذلك بعفوية؛ مما أضفى على تلك الابتهالات والدعوات نبرة إيقاعية تلقائية ومسحة فنية جمالية، وزاد من تأثيرها في النفس وما يحدث فيها من تضرع وخشوع.

وإن إصدار الصديق العزيز الأستاذ الشاعر عز الدين الإدريسي لهذا "الديوان" ليعد عملاً جليلاً، ليس لشعريته فحسب، ولكن كذلك لتضمنه معلومات غنية عن الموضوع، مفعمة بروح ديني عميق نابع من صدق ما ابتهل به ودعا الله عز وجل.

وإني إذ أزجي لأخوته الكريمة، على هذا الإنجاز الممتع النافع والبديع الرائع، أخلص عبارات التهنئة والتنويه والتقدير، لأدعو العلي القدير أن يجزل له عنه خير الجزاء وأوفاه، وأن يجعله -كما سماه- "نوراً إلهياً" ينير على الدوام سبيله وسبيل قارئه.

إنه سميع مجيب،

آمين والحمد لله رب العالمين.

الرباط، في 24 شعبان 1434هـ

الموافق 4 يوليوز 2013م

ديوان
رسائل النار والماء

للأستاذة الشاعرة سميرة فرجي

مطبعة المعارف الجديدة
الرباط 2013

بسم الله الرحمن الرحيم

إن كل متتبع لحركة الشعر في المغرب المعاصر، لا يلبث أن يلاحظ تراجع مكانة القصيدة العمودية أمام بقية الأشكال الأخرى التي أخذت تكتسح المجال الشعري، والتي لا تخلو في بعضها من ملامح إبداعية.

وعلى الرغم من شيوع هذه الظاهرة، فإن القصيدة العمودية —على قلة الجيد الذي ينتج فيها— لم تفقد ألقها الذي تظهر من حين لآخر نصوص تُبرزه وتؤكد.

وقد سعدت هذه الأيام بالاطلاع على ديوان "رسائل النار والماء" للشاعرة المتفننة الأستاذة المحامية سميرة فرجي، فأعجبت بما تتمتع به هذه الشاعرة من إمكانات ذاتية وقدرات تعبيرية.

فبالإضافة إلى لغتها المتينة الرشيقة، وعبارتها الجميلة الأنيقة، وصورها الرائعة البديعة، فهي تُعنى بالتشكيل الموسيقي المطرب، تضبطه بأنماط إيقاعية داخلية وخارجية، تتعامل معها بعفوية وتلقائية، وفق ما يتطلبه الوضع وتقتضيه المعاناة.

وهي بعد هذا تلفت النظر بنفسها الوجداني المتميز وجرأتها المتفردة في إعلان مواقفها، بشموخ فائق وحيوية متدفقة، وبوعي عميق ورؤية طموحة لما تسمو به نفسها ويعلو به القدر.

وعندي أن الأستاذة سميرة بهذا الديوان تكشف تجربة غنية في التعبير الشعري، هي وليدة انفعال حقيقي وتأثر بالغ، مما يجعلها تتجاوز المتعارف عليه والمتداول، وتُحوّل ما تعانیه من قضية شخصية -تبدو واقعية في الغالب- إلى ما يضيف عليها طابعاً إنسانياً يحث القارئ -بما يشبه الحكمة- على التجاوب معها بتعاطف واندماج.

وهي بهذا وغيره تحتل موقعاً طليعياً في ساحة الشعر العربي، يدعو بإعجاب وتقدير إلى كثير من الاعتزاز بها والافتخار.

مع خالص تهنئتي للأستاذة الشاعرة سميرة فرجي وصادق الدعاء لها بمزيد التألق والازدهار.

الرباط، في 27 شوال 1434هـ

الموافق 4 سبتمبر 2013م

من قلم

الشيخ محمد بن أحمد بنعبد الله

-القسم الثالث-

للأستاذ عبد الرحيم بنعبد الله

الطبعة الأولى

مطبعة النجاح الجديدة 2013م

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل نحو ثلاث سنوات، نشر الأخ الكريم الأستاذ عبد الرحيم بنعبد الله سفرًا نفيساً عن والده الفقيه العلامة القاضي الحاج محمد بنعبد الله ؛ جعله قسماً أول لم يلبث أن أتبعه بقسم ثان خصه لبعض كتاباته. وقد أبى إلا أن يلحق به قسماً ثالثاً واصل فيه ما تيسر له جمعه من تحبيرات قلمه رحمة الله عليه. وهو المتمثل في هذا الجزء الذي يسعدني التقديم له.

وعلى الرغم من أنني لم أكن أرى حاجة إلى هذا التقديم، بعد أن كان الأول قد صدر بمقدمة ضافية كتبها الصديق المرحوم الأستاذ الشاعر عبد اللطيف خالص، وكذا بعد أن قدم لقسمه الثاني الزميل الكريم الفقيه الحسين وجاج، فإني لم أتردد في الإدلاء ببعض ما لهذا الرجل الفذ من مكانة في نفسي، ترسخت على مدى أعوام عرفته فيها عن قرب منذ طفولتي الأولى ؛ إذ كان من ملازمي النادي الجراري الذي كان الوالد يعقده في بيته بعد عصر كل جمعة. بل أذكر أنه يكون في الغالب أول الحاضرين إليه، إن لم يسبقه في بعض المرات محل العم العلامة الجليل السيد مصطفى ابن المبارك، أو الفقيه العدل السيد عبد العزيز دينية رحمهم الله جميعاً.

ولا أخفي أنني كنت معجباً بسمته ووقاره وهدوئه وخفوت صوته، ما لم يحتد النقاش حول بعض القضايا العلمية والوطنية التي كانت تثار، والتي كان يستعد لها بإحضار مدوناته وتقاييده. كما كنت معجباً بهندامه الأنيق الذي لم تكن تفارقه فيه لبدة حمراء يتأبطها تحت سلهامه الأسود في الغالب. وهي الصورة التي كنت ألقاه عليها يومياً، وربما مرات في اليوم، وأنا وأخي محمد— في طريقنا إلى مدرسة أبناء الأعيان بربوة لعلو حيث كنا كثيراً ما نلقاه ونسلم عليه، وهو بباب منزله الواقع بحومة سقاية ابن المكي، أو متجه إليه.

ومع تقدمي في مراحل التعليم من الابتدائي إلى الثانوي، وكثرة ملازمتي لجلسات النادي، زاد تقديري للحاج محمد بنعبد الله الذي كنا نميزه بـ "الحاج" عن الأستاذ المرحوم محمد عبد العزيز بنعبد الله الذي كان كذلك من ملازمي هذه الجلسات ومنشطها بحماسة وما يثير فيها من مناقشات.

في غمرة هذا التقدير، تاقنت نفسي إلى تعميق معرفتي بالرجل الذي كان الوالد يطلعني على بعض جوانبها، خاصة ما يتصل بكتابه العلمية ومواقفه الوطنية¹. وهي جوانب أغرتني فيما بعد بمواصلة البحث فيها،

1- انظر ما كتبه الوالد عنه في مؤلفاته:

— من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين: الرباط و سلا ج. 2، ص: 92-94) الطبعة الأولى — مطبعة الأمنية — الرباط 1391هـ=1971م.

— التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين (ص: 89-90) منشورات النادي الجراي رقم 1 — الطبعة الأولى — مكتبة المعارف 1406هـ=1985م.

— هذه مذكراتي ج. 1، ص: 112-113 — دراسة وتحقيق الدكتور مصطفى الجوهري — منشورات النادي الجراي رقم 60 (مطبعة دار أبي رقرق بالرباط 2013م).

لترتسم عندي صورة هذا الرجل ومكانته النضالية في حقلي الثقافة والسياسة.

وإنه ليكفيني لإبراز هذه المكانة، أن أشير إلى أنه كان من بين الذين نهضوا -ممثلين لمختلف طبقات أهل الرباط- بمشروع تأسيس مدارس محمد الخامس، والذين شكلوا لجنة كانت على صلة مباشرة بجلالة الملك المغفور له محمد بن يوسف الذي احتضن هذا المشروع الوطني الكبير، وشارك في الاكتتاب الشعبي لإنجازه. وكانت تضم السادة أحمد الزبدي، ومحمد الجزولي، والحاج محمد بنعبد الله، والحاج أحمد الشرقاوي، والحاج عثمان جوريو، والمقاول مصطفى فلال، والمهندس عبد القادر فارس، ومصطفى ابن المبارك، والحاج الطيب الغربي، وعلال كراكشو، ومصطفى بن الفاطمي بركاش، والوالد عبد الله الجراري الذي كان مشرفاً على المشروع، باعتباره المسؤول يومئذ عن التعليم العربي الحر وكذا تعليم البنات، وهما مما كان يرعاهما الملك المنعم بنفسه.

ومما يزيد في إظهار وطنيته، أنه خلال الأزمة التي عرفها المغرب إثر نفي الملك المجاهد محمد بن يوسف، وما أعقبها من مظاهرات في مختلف المدن، اعتصم عدد من علماء فاس بالضريح الإدريسي، إلا أن السلطة الفرنسية أخرجتهم بالقوة ونقلتهم إلى الرباط، وسجنتهم في مدرسة للا عائشة بالمشور (تواركة)، قبل أن يستنطقوا في الاستئناف الشرعي،

ويجبوا على توقيع اعتراف بذنبهم والتماس العفو من الملك "الدمية" محمد بن عرفة. وكان رئيس الاستئناف يومئذ الفقيه المرحوم إسماعيل الإدريسي قد هياً فتوى في الموضوع، اعتمد فيها على قول الشيخ خليل في المختصر: "لا بدخول الحرم" أي لا يؤخر القصاص عن الجاني بدخول المسجد الحرام. وحين عرض الرئيس هذه الفتوى على أعضاء المجلس اعترض عليها الحاج محمد بنعبد الله، فكان أن أعفي من منصبه¹.

أما في المجال العلمي، ففيما دوّنه الأستاذ عبد الرحيم في الكتاب بأقسامه الثلاثة، وما ساقه من نصوص تقييد والده وخطبه وفتاويه، إضافة إلى ما ورد في بعض مصادر ترجمته، ما يدل على الجهد الذي كان يبذله رحمه الله في تناول القضايا الفقهية التي كانت رائجة بين معاصريه، والانكباب على بحثها بدقة وعمق.

وفي هذا السياق، أود أن أقف عند الحوار الذي دار بينه وبين والدي الذي كان أصدر مؤلفاً بعنوان: "القول المحتم في لبس الخاتم". وكان الفقيه بنعبد الله قد كتب عنه تقریظاً أعقبه بنقد نشره مستقلاً بعنوان: "الدر

1- أعضاء على الرباط: المدينة والجهة لعباس الجباري (ج. 1، ص: 80) منشورات النادي الجباري رقم 21 - مطبعة الأمنية - الرباط 1422هـ=2002م.

وانظر تفاصيل هذا الحدث في "حياة بطل التحرير محمد الخامس" لعبد الله الجباري -والدي رحمه الله- ص: 342-345 (منشورات النادي الجباري رقم 37 (مطبعة الأمنية - الرباط 1427هـ=2006م).

المنظم في جواب صاحب القول المحتم". إلا أن الوالد لم يلبث أن رد على الفور بما أسماه: "نقد النقد لما احتوى عليه الدر المنظم من الحل والعقد"¹. وتلخيصاً لمقتضيات هذا الحوار، ذكر الوالد أثناء ترجمته للعلامة الحاج محمد بنعبد الله ما يلي: "لقد جرى بين المغفور له وبين المؤلف الجراري أيام طلبه الأول، حوار علمي عند ظهور أول كتاب للجراري: (القول المحتم في لبس الخاتم) - وكان المترجم بنعبد الله قد قرظه - أدى إلى تحرير كل منهما مؤلفاً خاصاً تصويماً لموقفه. وطبعي أن يصدر أمثال هذه المناقشات التي لا تعتم تعكر الجو وتكدر الصفو، خاصة ما كان ذلك فور المعرفة وريعان الشباب، حيث يكون للتبكير صولته وطغيانه، حتى إذا ما تقعدت المعارف واكتمل الوعي، عادت النفس الرزينة إلى صوابها في ندم على ما بدر"².

وعندي أن مثل هذا الحوار يُدار في فترة كان الوعي العام ضعيفاً والثقافة لم تنهض بعد، وفي مرحلة مبكرة من حياة صاحبيه، ينم عما كان بينهما من تطلع صادق إلى الاستزادة المعرفية، ورغبة خالصة في النقاش وتبادل الرأي، بموضوعية تدل على ما كانا يقصدان إليه، مما لم يكن يؤثر

1- كل هذه الكتابات طبعت بالمطبعة الوطنية بالرباط عام 1350هـ=1932م.

2- من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين. ج 2، ص: 94

وانظر كذلك ما كتبه المؤلف في "هذه مذكراتي"، ج. 1، ص: 112-113

على روابط الصداقة الحميمية التي تجمعهما وتؤكد ما بينهما من صلات وتواصل.

على هدي هذا النهج الأبوي السمع، توطدت علاقتي بالصدیق العزیز الأستاذ عبد الرحيم الذي جمعني وإياه في سنوات الخمسين رحاب الثانوية اليوسفية، وإن في فصول مختلفة ؛ ثم تسنى لي في الأعوام الأخيرة أن أسعد بانضمامه إلى النادي الجراري، وبمشاركته في نشاطه سواء بتقديم عرض أو مناقشة كتاب أو تحليل مسألة اقتصادية، مما يتصل بمجال تخصصه المالي والبنكي، وكذا بإنشاد قصيدة من إخوانياته التي يمتع المجلس بها، في عناية ببعض المناسبات العائلية.

وعندي أنه بهذا المؤلف الذي أنجزه عن والده رحمه الله، والذي قدمت ببهج وسرور لقسمه الثالث، يكون قد عبر عن برور ووفاء نادرين، ويكون كذلك قد قدم خدمة جلى للتعريف بالجهود الثقافية والوطنية لأحد علماء الرباط، ومن خلالها فتح صحائف جديدة من التراث الثقافي المغربي الذي ما أشد الحاجة إلى نفض الغبار عنه، ليكون في متناول الأجيال المتعطشة لما أنتجه المغاربة خلال الفترات السابقة.

وإني سمع الدعاء للفقيد العزیز الفقيه الحاج محمد بنعبد الله ولصحبه الكرام بواسع الرحمة وجزيل المغفرة ووافر الجزاء على ما قدموا

من خدمات وتضحيات- أهنيء الأء عبد الرحيم على ما يبذل في مضمارة
البءء والكتابة والنشر؁ متمنياً له دوام التوفيق واطراد السداد.

والله من وراء القصد.

الرباط؁ في 5 ذي القعدة 1434هـ

الموافق 12 سبءمبر 2013م

أنفاس التاريخ

للدكتور حامد عيد

منشورات وزارة الثقافة
-الهيئة العامة لقصور الثقافة-

مصر 2015

بسم الله الرحمن الرحيم

بين المغرب ومصر روابط عريقة وعميقة ترجع في جذورها إلى بدايات التاريخ وما قبله .وهي روابط متينة لم يكن تعاقب الحقب والأزمان يزيدها إلا رسوخا وثباتا ، وقدرة على بناء صرح شامخ للحضارة والثقافة ، وعلى تجاوز كل العقبات التي قد تعوق هذا البناء.

وإذا كانت تلك الروابط قد مست مختلف مكونات هذا الصرح ، سياسيا واقتصاديا وروحيا وفكريا وفنيا ، مما هو معروف وقائمة له شواهد وأعلام ، فإنها تجاوزت هذه المجالات لتتأكد بالالتحام الاجتماعي المتجلي في تبادل الهجرات ، وما ينتج عنها من زيجات عرفت أوجها قديما باقتران الملك المغربي أغسطس الشهير بيونا الثاني (23 - 25 ق. م) باني مدينة وليلي ، بكليوباترة سليني التي أنجبت له الأمير بطليموس وهي بنت كليوباترة الكبيرة.

وقد شهدت العلاقات المغربية المصرية تألقا في المرحلة الحديثة والمعاصرة ، وما واكبها من نهوض ، سواء في مرحلة الكفاح الوطني للتحرر من الاستعمار أو بعد ذلك ، مما كان فيه لأرض الكنانة فضل كبير على سائر الأقطار العربية .وهو تألق يعمل البلدان الشقيقان والقائمون على تمثيلهما غاية الجهود لاستمراره وبلورته في أزهى صورة وأبهى حلة.

ولا يخفى أن للدور الذي قام به المركز الثقافي المصري منذ تأسيسه في الرباط بعد حصول المغرب على استقلاله أواسط الخمسين من القرن الماضي -ومازال يقوم به - أثرا كبيرا في تقوية أواصر التعاون العلمي والأدبي والفني ، بدءا من التعريف بما يغني به كل طرف ميادين هذا التعاون ، إلى توسيع آفاق بجميع الوسائل المتاحة ، من خلال تقديم محاضرات وعقد ندوات وتنظيم مهرجانات وتسهيل تبادل المنشورات وما إليها من إنتاج في سائر أنماط الإبداع .

ولعل ما حققه المركز في الفترة التي كان يديره الأستاذ الدكتور حامد عبد الرحيم عيد ، بدءا من سنة 2001 م ، ليشكل محطة بارزة في مسيرة هذا المركز ، بما سجل عبر " صالونه " المتميز من صحائف ناصعة ، زانها حضور مفكرين وأدباء وفنانين من البلدين ، لتثبيت ركائز التعارف والتعاون بينهم ، والعمل على نفخ الغبار عن بعض غوامض التراث المشترك ، وكذا إثارة قضايا ثقافية معاصرة ، ومناقشتها في إطار حوار حر تتبادل فيه الآراء ووجهات النظر .

وقد تسنى لي أن أحضر بعض هذه الأنشطة وأشارك فيها ، وأن أعين ما يتمتع به الدكتور عيد من معرفة واسعة وخبرة فائقة وغيره كبيرة على القيم الأصيلة والمقومات والثابتة التي تجمع بين البلدين ، إلى جانب خصال حميدة تكشفها دماثة خلقه وهدوء طبعه وحكمة تصرفه ، مع لطف

معشر كان يقربه إلى قبل المغاربة ويحبه إليهم ويحبهم إليه ، ويخلق لذا
الجميع طيب الذكر وحسن الأحدثه.

واعترزا منه بالذكريات الجميلة التي احتفظ بها عن مقامه بالمغرب
والمهام الثقافية التي أنجزها فيه بكثير من النجاح ، فإنه أبى إلا أن يدون
لقطات منها في هذا السفر الذي أحسن حين أعطاه عنوانا معبرا هو :
"أنفاس التاريخ".

وإني إذ أعرب عن سعادتني بالتقديم له بهذه الكلمة الوجيزة ، لأود
أن أزجي له تهنئة أخوية على إصداره ، مشفوعة بصادق اتنويه والتقدير ،
ومقرونة بخالص الدعاء له بدوام التوفيق واطرد السداد ، وللبلدين العزيزين
-مصر والمغرب - أن يستمر التواصل بينهما ثقافيا وعلى جميع المستويات
ومختلف المجالات ؛ بما يعنيهما على أداء رسالتهما السامية عربيا
وإسلاميا وعالميا ، وعلى مواجهة كل الإكراهات والتحديات التي قد تعترض
هذا الأداء ومواصلته ، في تطلع دائم إلى تحقيق الأمن والاستقرار ، وإشاعة
التقدم والازدهار.

والله وراء القصد

الرباط، في 18 صفر 1435هـ

الموافق 22 دجنبر 2013م

منازه رياض التوبة

للشيخ الحاج محمد بن مسعود الأزموري

شرح و تحليل :

الحاج عبد الرحمن الملحوني

تحقيق و تقديم إذاعي :

الحاج أحمد سهوم

طبع دار أبي رقرق - الرباط

1435هـ - 2014م

بسم الله الرحمن الرحيم

شاع في الشعر العربي المعرب نظم قصائد طويلة، منذ ما عُرف بالذهبات والمعلقات عند الشعراء الجاهليين، إلى ما ظهر من قصائد ملحمية في المرحلة المعاصرة ؛ وإن كثرت فيه المنظومات التعليمية التي كان الهدف منها تلخيص بعض العلوم وتيسيرها للحفظ والتداول، والتي غالباً ما تقترن بشروح وتعليقات تفك ما قد يكون فيها من غوامض الاختصار.

وشبيه بهذا ما برز في إبداعه بعض كبار شعراء الملحون من مطولات، ولا سيما تلك التي يحكون فيها جوانب من سيرة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، في تركيز على شمائله ومعجزاته ومواقفه وغزواته، وما يرتبط بها من قصص ضمنوها -على سبيل المثال- قصائد لخلوق المعراج والوفاة. وكانت تُلقى سرداً في الزوايا والمساجد وبعض البيوت، بمناسبة إحياء ذكرى مولده الشريف. وقد تتجاوز هذا الغرض إلى غيره من الأغراض الدينية التي كان يُقصد منها إلى الوعظ والإرشاد وإيقاظ الأرواح وتنبيه الغافلين، وإلى تحقيق الإصلاح في عمومه.

*** **

وقد استوقفتني في هذا السياق —على ندرة ما قيل فيه— قصيدة
”منازه رياض التوبة“ للشيخ الحاج محمد بن مسعود الأزموري، وهو من
شعراء القرن التاسع عشر، وكان تلميذاً للشاعر المتصوف الشيخ عبد القادر
العلمي. وكان بحكم هذه التلمذة متأثراً بتوجهه الصوفي، على نحو ما
تكشفه هذه القصيدة التي لم تنل للأسف، كغيرها من شعره، ما هي جديرة
به من اهتمام، على الرغم من مكانة صاحبها في الفن.

وفي لقاء مع الأخ الأود شيخ الملحن الكبير الحاج أحمد سهوم الذي
كنت عرفته قبل نحو من خمسين عاماً وأفدت من معرفته وخبرته في هذا
المجال، ذكر لي أنه كان تلقى هذه القصيدة من شيخه بفاس مولاي
ادريس العلمي؛ وهي مجرد أشلاء مبتورة، ثم عرضها على الشيخ
المحجوب لحرش الذي كان مشهوراً بحفظ المطولات، فوجده لا يستحضر
منها إلا نحو خمسين بيتاً، وهو من أشياخ مراكش، وكان قد أقام في فاس
مشتغلاً بحرفة الدباغة.

كما ذكر لي أنه من إعجابه بها، قرر أن يتبناها فتصدى لترميمها،
إلى أن استوت على النحو الذي أصبحت عليه. ولم يكتف بذلك، بل زاد
فقدم لأبياتها بتعليقات ضافية على ما تتضمنه من مقامات صوفية، انطلاقاً
من فهم جديد للمنازه.

وذكر لي كذلك أنه في إحدى رحلاته الرمضانية لمدينة مراكش، قابل الأستاذ الباحث السيد عبد الرحمن الملحوني، فأسمعه هذه القصيدة بصوته وسلمها إليه ؛ ثم لم يلبث أن قدمها للإذاعة الوطنية في ثلاثين حلقة قَرَّب من خلالها للمستمعين بلغته العامية العذبة وصوته الرخيم ما تزخر به من معان غزيرة ومصطلحات صوفية وفيرة.

ولم يكن بدعاً أن تلقى القصيدة مثل هذه العناية من الشيخ الحاج أحمد سهوم الذي اشتهر بتقديم هذا النمط من الأعمال الإذاعية في حلقات قد يبلغ عددها من الثلاثين إلى الستين.

ولعلي أن أشير منها إلى:

- 1- القول القرآني في الفعل الرباني
- 2- التذكير الإلهي في القسم الإلهي
- 3- الرؤية والنظر والبصيرة والبصر
- 4- أبخور الطيب سيدي عبد الرحمن بوقطيب، الذي كان لقيه في بني ملال وأخذ عنه قصيدة "السُّلْسَلَة" التي شرح فيها حكم ابن عطاء الله السكندري.

وهو الآن -وفق ما أخبرني- يهيبُ عملاً يتصل بالأمثال في القرآن الكريم ؛ قصده من ذلك إبراز الجانب الديني في الملحون ومدى ثرائه وما له من تأثير في نشر الوعي وتهذيب النفوس.

*** **

وإذا كان الشيخ الحاج أحمد سهوم قد حقق نص هذه القصيدة، إن لم أقل أعاد تشكيلها، بما قام به من جمع لشتاتها ومعالجته وترميمه حتى استقام متنها واكتمل بتعليقاته، فإن الأخ الكريم الأستاذ الباحث السيد عبد الرحمن الملحوني قد قام بشرحها وتحليلها بلغة معربة راقية، أتاحت له الغوص في مجال ليس من السهل ارتياده، لامتياحه من التصوف ومقاماته وأحواله. ولكنه بذل جهداً كبيراً في ذلك، مستعيناً بخبرته في دراسة الملحون، وخاصة منه ما كان متصلاً بالجانب الديني.

ومعروف أن من بين ما قام به في هذا الجانب، إنجاز بحوث عن جفريات الملحون، وعن الشيخين عبد العزيز التباع وعبد القادر العلمي، وعن الحكاية الشعبية الصوفية، وعن مسالك الطريقة الحمدوشية ؛ إضافة إلى مساهماته العديدة في مهرجانات ملحونية وندوات علمية مختلفة.

وقد كانت نشأته في حضان والده المرحوم شيخ الملحون بمراكش الحاج محمد ابن عمر الملحوني، أكبر دافع له لخوض هذه الغمار الصعب. آية

ذلك ما أشرت إليه من مؤلفاته التي أغنى بها -ويغني- ما أنجز من دراسات في هذا الفن الذي من خلاله تتضح كثير من ملامح الثقافة الشعبية المغربية على العموم، والإبداع الشعري فيها على الخصوص.

وإنها لدراسات مفعمة بفكر ديني وطني لا شك أنه -إلى جانب تكوينه المدرسي- قد اكتسبه كذلك من والده الذي عرفته وجالسته بمحضر ولده البار في بيته بمراكش، يوم بدأ اهتمامي بالملحون في سنوات الستين من القرن الماضي، ولاحظت كبير تشبعه بهذا الفكر، إضافة إلى ما غمرني به من كرم، وبما أفادني به، وما أطلعني عليه من كنانيشه التي جمع فيها معظم شعره، وكان قد وضعها بين يدي بتلقائية وسخاء.

*** **

وبعد، فإني لا أخفي كبير سعادتني بتقديم هذا الكتاب النفيس الذي التقى لإنجازه الشيخ الحاج أحمد سهوم والأستاذ عبد الرحمن الملحوني، كل بما تسنى له وتوافر لديه من علم وفن وخبرة، على الرغم من المشقة التي لا يدركها إلا من جرب تحقيق النصوص والتعليق عليها من جهة، وشرحها وتحليلها من جهة أخرى.

وإني إذ أنهه بهذا الروح الذي حث الصديقين العزيزين على هذا
الإنتاج الهام، لأود أن أزجي لهما عبارات التقدير لما قاما به، داعياً
لأخوتهما بتمام العافية المقرونة بدوام التوفيق واطراد السداد.

ومن الله العون والقبول.

الرباط، في 14 ربيع الأول 1435هـ

الموافق 16 يناير 2014م

تاريخ بني ملال وأحوازها
حاضرة تادلا أزيلال: التاريخ والتراث

للدكتور مصطفى بن خليفة عربوش

مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء

1435هـ - 2014م

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل عقد ونصف كان الأخ الكريم الأستاذ الباحث الدكتور مصطفى بن خليفة عربوش قد نشر دراسة قيمة عن تاريخ منطقة إقليم تادلة وبني ملال، كنت سعدت بكتابة تقديم لها. ثم ما لبثت أن أتبعها بمؤلف جليل عن الأعلام، جعله جزءاً ثانياً لسلسلة كتب خص بها هذه المنطقة الغنية بطبيعتها الخلابة وعيون مياها العديدة، وما فيها من معالم تراثية، وما عاشت من وقائع وأحداث هامة، وما شاع فيها من عادات وتقاليد أصيلة، وما عرفت من مجاهدين أبطال ومن رجال أفاض نبغوا في مختلف مجالات المعارف والفنون.

وها هو اليوم، وفي هذا السفر الجليل الذي بين أدينا، يكتب تاريخاً موسعاً يراجع فيه بعض ما كان سبق أن نشره، مع إضافة مباحث ضافية عن جوانب كان فاتته تناولها.

وإني لأحمد للمؤلف الصديق هذا الروح العلمي الدال على ما يتحلى به من تواضع صادق، ورغبة أكيدة في الاستزادة والتكميل، وسعي حثيث إلى تجويد العمل وإتقانه وتقديمه للقراء على النحو الذي يرضيه ويطمئن إليه، مستفيداً من الخبرة التي يكتسبها مع مرور السنين، وهو يتمرس بالبحث الرصين في تخصص دقيق لعله أن يكون متفرداً في سبَر أغواره.

ثم إنني لا أخفي كبير تقديري للجهود المتوالية التي يبذلها للتعريف بالمنطقة التي ينتمي إليها، وكشف غوامضها وما نهضت به من أدوار، وما كان لها بذلك وغيره من تأثير ليس على المستوى المحلي فحسب، ولكن على صعيد الوطن كله. وهو في هذا لا يزيد إلا اقتناعاً بالمنهج الذي ارتأى أن يسلكه في جميع كتاباته.

وإذا كان هذا المنهج الإقليمي الذي ما فتئت أدعو إليه في الجامعة منذ نحو نصف قرن، ما زال يبدي الحاجة إلى اعتماده في مختلف الدراسات المغربية، فإنه اليوم أكثر إلحاحاً على هذا الاعتماد، بحكم السياسة الجهوية التي اختار المغرب أن يسير عليها، لما يتميز به من تعدد وتنوع. وهي ظاهرة لا يمكن استيعابها -لسعتها- إلا بمثل هذه الجهوية التي لا ينبغي أن تقتصر فقط على مراعاة المجال الجغرافي أو الثروة الطبيعية أو عدد السكان، ولكن لا بد لتحقيقها من اعتبار الجوانب التاريخية والثقافية وما يتصل بها من تراث دفين وإبداع متجدد. فهي التي تبرز الخصوصيات التي تبلور حقيقة هذه الجهوية ومصادقيتها، سواء ما كانت به متميزة، أو ما كانت تشترك فيه مع غيرها؛ مما يتشكل به تكامل الوطن ووحدته ويظهر ثراؤه وغناه.

وإني إذ أثنى عالياً ما قام به الأخ العزيز الدكتور مصطفى بن خليفة
عربوش في هذا السفر النفيس وأهنئه عليه ، لأدعو العلي القدير أن يزيده من
عونه وتوفيقة ، لمواصلة العمل في هذا الميدان الذي جند نفسه للنهوض به .
والله من وراء القصد.

الرباط، في 23 جمادى الأولى 1435هـ

الموافق 25 مارس 2014م

ديوان ملحون

-الجزء الأول-

للحاج عمر بُورِّي الروداني

منشورات النادي الجراري رقم 63

منشورات منتدى الأدب لمبدعي الجنوب رقم 21

مطبعة دار السلام - الرباط 2014

بسم الله الرحمن الرحيم

تعتبر مدينة تارودانت - كما هو معروف - أحد مراكز المغرب الحضارية والثقافية الكبيرة والهامة، سواء على الصعيد السياسي الذي هي في طليعة مواقعه الفاعلة والمؤثرة، أو في المجال الاقتصادي وما يشهد من ازدهار فلاحى وصناعى، أو فى الميدان الفكرى والأدبى بما كان - وما زال - للفقهاء والعلماء والأدباء الرودانيين من تفوق ظهرُوا به ليس فقط على النطاق السوسى، ولكن بما أشاعوا من معارف أشعوا بها على جميع ربوع المغرب.

وتكاد الآداب والفنون أن تكون من بين أهم ما تميز به أهل هذه الحاضرة العريقة، بدءاً من الشعر العربى الذى حازوا فيه قصب السبق، مع ما لهم فى التعبير الأمازيغى من تألق وتأنق، إلى الملحون الذى انقاد طائعاً على لسان مبدعيه.

ولا أخفى كم شذنى اهتمامى بهذا الفن إلى أحد كبار أشياخ نظمه الرودانيين، الحاج عمر بورى الذى أسعد بكتابة هذا التقديم للجزء الأول من ديوانه الذى طال انتظار عشاق الملحون له ؛ وكنت قد استمتعت من قبل ببعض قصائده وما سمعت منها بإنشاده العذب الرحيم. كما أتيح لى أن أتعرف إليه شخصياً فى رحاب أكاديمية المملكة المغربية، ضمن أعضاء

لجنة "موسوعة الملحون" التي أشرف برئاستها ؛ فلفت انتباهي بكبير تواضعه، وهدوء طبعه، وحسن سمته، ووافر معرفته بهذا الفن، وفائق تبريزه فيه، نظماً بديعاً، وحفظاً غزيراً، وحسن أداء، إضافة إلى عصاميته التعليمية وما لها من أثر في صقل موهبته وتثقيف إبداعه.

ثم توطدت معرفتي به في اللقاءات التي تجمعني بإخوة "منتدى الأدب لمبدعي الجنوب" في إطار الرحلة المتبادلة بيننا، وتنظيم أنشطة ثقافية بالتناوب، مرة في تارودانت وأخرى في الرباط، ولا سيما بعد أن تم عقد توأمة حميمية بين النادي الجراي وهذا المنتدى الذي يعتبر الشيخ بوري أحد مؤسسيه ومسانديه.

وقد سررت لعزمه على إصدار الجزء الأول من ديوانه في هذا السفر الذي يضم اثنتين وستين قصيدة، تراوحت موضوعاتها بين ما هو ديني ووطني واجتماعي، في إشادة بتارودانت وطبيعتها الخلابة، وجمال فصل الربيع فيها، من غير أن ينسى التنويه بمعهدا الإسلامي وناديها "الغد الأدبي"، وما اشتهر فيها من فنون على رأسها "الدقة". وهو مع ذلك لا ينسى أصله المراكشي الذي يشير إليه في بعض قصائده، مستحضراً صلحاء المدينة الحمراء، وكذا فريقها الكروي "الكوكب".

وبروح وطنية غيورة يتابع بعض أحداث الساعة، كحديثه عن الوحدة الترابية ومقترح الحكم الذاتي، باعتباره حلاً لمشكل الصحراء

المغربية. وبالروح نفسها يتحدث عن فاس وجامعها العريق، وكذا إيفران من خلال "جامعة الأخوين". بل يتجاوز ذلك فينشئ نصاً لقطر عربي شقيق بنفس قومي صادق.

واعترافاً منه ببعض الرجال الذي عرفهم، فإنه ينتهز مناسبة تكريمهم ليهنئهم ويثني على جهودهم وما قدموا من خدمات جليلة للوطن، وما هم جديرون به من اعتراف لهم بالجميل. وفي هذا السياق، فإنه لا ينسى رثاء بعض أشيخ المحلون الذين افتقدتهم الساحة الفنية، وكانت له صلة بهم وثيقة.

وعلى الرغم من أنه يسير في نظمه على ما تعارف عليه شعراء هذا الفن من قواعد وتقاليد، فإن مما يلفت النظر في قصائده أنه نادراً ما يختتمها بتاريخ نظمها، سواء مباشرة أو بحساب الجمل. كما يلفت النظر في أسلوبه بظواهر لا ترصد إلا عند كبار الأشيخ، كالقول في المحاورات، على نحو ما تمثله قصيدته "الطيارة والكار" و"البدوية وبنت لحضر"، وكذا القول في "السرابة"، مستقلة أو مستهلاً بها بعض قصائده.

ويسجل له كذلك من هذه الظواهر، اعتماده "النشب"، أي بدء البيت أو الشطر بما ختم به البيت أو الشطر السابق عليه. وقد يكون بكلمة أو كلمتين أو شطر كامل، على حد ما جاء في قصيدته "أسطابئو جلسة"

حيث نشب بكلمتين، مع الحرص على ذلك في كل الأبيات، وفق قوله في بداية قسمها الأول:

هاج وجدي وخبيري قال قم طالع كوكبي

اغتنم الوجبة زيد اكتب خذ قلم وقرطاس

قلم وقرطاس خذيت توكلت على ربي

نُرعّ ابیات بجواهر فاق سُومها الأدرار وُ ماس

بهذا وغيره مما يتمتع في هذا الديوان، أشعر ببهج غامر لتقديمه، وإصداره ضمن منشورات النادي الجراي، مع تهنئة ودية للإخوة الأعزاء أعضاء "منتدى الأدب لمبدعي الجنوب"، لما يبذلون من عناية فائقة بفن الملحون، ومع دعاء خالص إلى العلي القدير أن يحفظ الصديق الفاضل الحاج عمر بوري في صحة كاملة وعافية شاملة، مع دوام التوفيق والسداد لمزيد من الإبداع.

إنه سميع مجيب.

الرباط، في 23 جمادى الأولى 1435هـ

الموافق 25 مارس 2014م

أسفي مدينة الأحلام
قصائد زجلية شعبية وتراثية

للأستاذ عبد العزيز الموزن

الطبعة الأولى 2014

Safigraphe

أسفي

بسم الله الرحمن الرحيم

بمناسبة انعقاد الندوة الفكرية الهامة التي نظمتها الكلية متعددة التخصصات بأسفي في موضوع: "التنوع الثقافي وسؤال التنمية"، يومي الأربعاء والخميس رابع وخامس يونيو 2014م، وفي بحبوحة الحفل الساهر الذي ختمت به أعمالها، سررت بالتعرف إلى بعض أدباء هذه الحاضرة العريقة اللامعين وفنانيها البارزين الذين كان من بينهم الأستاذ عبد العزيز الموزن.

وقد زاد سروري في لحظة التعرف هاته، حين علمت أنه من الفاعلين الاقتصاديين الذين تحملوا مسؤولية عدة جمعيات متخصصة، سواء على الصعيد المحلي أو الإقليمي، وأنه هو من أنجز "الطجين" الأكبر الذي يزين أحد ميادين المدينة، والذي خلده بالتسجيل في كتاب "جينيس"، وأنه بالإضافة إلى ذلك هاوٍ لجمع التحف وقرض الشعر.

ولا أخفي أن هذه الهواية -بنوعيتها- شدتني إليه، فلم نفترق بعد الحفل، إلا ونحن على ميعاد لزيارة متحفه. وهو ما تحقق في صباح الغد رفقة الأستاذين الكريمين الدكتور الحسان بومكرض عميد الكلية ونائبه الدكتور منير البصكري.

ويعتبر هذا المتحف إنجازاً شخصياً اختار له الأستاذ الموزن منزلاً في المدينة العتيقة، وأقامه بمعرفته وبجهده الخاص لإبراز جوانب من الحياة الحضارية والثقافية لأسفي، بما تتضمنه من حرف ومهن وصناعات وما تتوسل به من أدوات وتجهيزات، وبما يجسده من خلال مجسمات متقنة العرض لبعض العادات والتقاليد والأعراف القديمة التي استمرت موجودة إلى عهد قريب. ولعمري إنه لعمل باهر، جدير بأن يكون في طليعة المعالم والمزارات، ليس فقط ليرتاده السواح والضيوف، ولكن كذلك سكان المدينة، ولا سيما ناشئتها الناهضة.

وفي غمرة إكباري لهذا العمل الجليل والانتشاء به، أطلعني السيد الموزن على إبداعه الشعري المتمثل في ديوان نشره بالفرنسية تحت عنوان:

« Safi la sirène bleue »

وختمه بقصيدة عربية عمودية على حرف الراء، مطلعها:

حمامة بيضاء تنادي من القصر

تحكي الآلام وتبكي من الغدر

وهي تسمية ترجم بها عنوان الديوان الفرنسي، وإن وصف عروسته

فيه بالزرقاء.

كما أطلعني على ديوان آخر له ، يضم نصوصاً زجلية مرقونة بعنوان :
"أسفي مدينة الأحلام". وهو هذا الذي يسعدني أن أكتب له هذه الكلمة
التقديمية الوجيزة.

يضم هذا الديوان ثلاثاً وعشرين قصيدة ليس صعباً على القارئ
تصنيف شكلها ضمن الشائع عند الزجالين ، على ما بينهم في هذا المجال
من تفاوتات واختلافات غير مضبوطة في الغالب. فقد جاءت لغة هذه
القصائد متراوحة بين المعرب والعامي ، كما جاء عَرُوضها أقرب إلى الموزون
المتداول ، مما جعلها قابلة وفق أسلوب الإنشاد وإيقاعه —أو توقيعه— لتكون
غير بعيدة عن هذا النمط أو ذاك ؛ يسعف الشاعر في ذلك أنه في معظمها
يتخير الألفاظ بسيطة وواضحة ، وأنه يلتزم وحدة البيت والقافية ، كاشفاً —
بقصد أو بدونه— عن مدى تمكنه من أدوات النظم في النمطين.

كما أنه في انتخاب موضوعاته يبدو وكأنه يريد بالتعبير الشعري أن
يلتقط صوراً للحياة في أسفي ، مثلما جسمها في معروضاته بالمتحف. وهو في
هذا الالتقاط لا يخفي تفاعله مع مدينته ومجتمعه ، بما فيهما من إيجابيات
وسلبيات وما يبثان في نفسه الشاعرة من آمال وآلام ، حسب رؤاه إليهما وما
له تجاههما من مواقف ، مهما يقدمها وضيئة أو قاتمة ، فهي تشكل في
النهاية أحلاماً تنبعث من مدينته. ومن ثم لا نستغرب العنوان الذي اختاره
للديوان.

أدعو الله له باطراد التوفيق والسداد، لتحقيق المزيد مما هو بصدده
من عناية بهذه الحاضرة الأصيلة والجميلة والحببية.

الرباط، في 28 شعبان 1435هـ

الموافق 26 يونيو 2014م

ديوان
نبض الفؤاد

للدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري

قيد الطبع

بسم الله الرحمن الرحيم

يخامرني شعور بالاعتباط والابتهاج، كلما أتيح لي أن أطلع على ما يَجِدُّ من إنتاج الأخ الكريم الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري، أو أن أستمع إلى بعض أحاديثه واستجواباته، وما يلقي من كلمات وعروض في ندوات ومؤتمرات وغيرها من المناسبات. وهو شعور نابع مما لذلك كله من تأثير ينفذ إلى الفكر والذهن والقلب، ويخلف في النفس إكباراً لسعة ثقافته وغزارة معارفه، وتقديراً لسديد آرائه، وتجاوباً مع مواقفه الإسلامية الصادقة، وإعجاباً بسهولة أسلوب تعبيره ووضوحه وما فيه من حسن وبهاء لا تصنع فيهما ولا تكلف. وهي سمات لا تلبث أن تُقربه إلى المتلقي مفعمة بمودة خالصة ومحبة صافية.

ثم إن الأستاذ التويجري يزين ذلك كله بروح مَرِحَةٍ فَكِيهَةٍ خفيفة، يمزجها بدعابات ونوادر وطرائف، ويستشهد فيها بِنِكَاتٍ وأشعار من ظَرِيفٍ محفوظه. وغالباً ما لا يكتفي بهذا المحفوظ أو ما ينشده جليسه في السياق، فيضيف إليه بارتجال بديع لا يخلو من توريات ومفارقات، ما ينم عن حضور ذهني سريع وبداهة فورية باهرة. وكم كنت أسعد حين تروق المذاكرة بيننا وتلذذ المسامرة، فأتبادل وإياه مساجلات هي من قبيل الإخوانيات التي اعتاد الأدباء تطارحها في مجالسهم، أو التراسل بينهم

بها، في مزج بين الجد والهزل، وفي توادُّ قد لا يخلو في بعض الأحيان من عتاب رقيق ولوم رقيق.

وما هذه النصوص الوامضة إلا جانبٌ مما للصديق العزيز في مجال الشعر من إبداع وافر، تبرزه قصائده المتعددة ومقطوعاته المتنوعة التي كثيراً ما اقترحت عليه أن يجمعها ويصدرها في ديوان. ولكنه كان يرى أن ذلك كله موقوت بإبانه. وها هو اليوم يُقدم - باقتناع - على نشر هذا الديوان، بل جزء أول منه فقط، ويشرفني بأن يطلب مني تقديمه. فلعلي أن أوفق إلى ذلك بهذه الكلمة الوجيزة، وإن كنت أرى أن الشعر يُقدم نفسه بنفسه، دونما حاجة إلى وسيط، ما لم يكن الأمر يقتضي نقداً ليس مكانه مثل هذا التقديم.

*** **

يتكون هذا الديوان من إحدى وثمانين قصيدة ومقطوعة متفاوتة الطول، تبدأ من ثلاثة أبيات كما في: "قال المسيح". وتزيد إلى أن تبلغ أحد عشر بيتا في: "ابن عباد" الثانية، وثلاثة عشر بيتا في: "شكوى الزمان". وقد تصل إلى أربعة وعشرين بيتا وفق ما جاءت عليه قصيدة: "ابن عباد" الأولى. وزاد في اعتباري لهذه النصوص أنها لم تتجاوز هذا الطول، وأنها جاءت في معظمها على بحور خليلية خفيفة وقصيرة، وكأني به كان يقصد إلى انتخابها من بين شعره على هذا الشكل، تسهيلاً لحفظها وتداولها. وما

إخال الأمر إلا كذلك، مع أن له مطولات لا شك أنه أجّلها للجزء الثاني من الديوان.

هذا وتكاد القصائد والمقطوعات التي بين أيدينا أن يكون نصف عددها - من حيث المضمون - تصويراً لمكابدة قلبية مع فتون الهوى والحب، وتعشّق السحر والجمال وتحمل آثار الأشواق. ولعل ذلك ما جعله يتخيّر لديوانه عنواناً دالاً هو: "نبض الفؤاد". وبعد هذه الغزليات تأتي الوطنية والقوميات وما يرتبط بها من قضايا وأزمات، يستدعي بعضها عبّر شخصيات كابن تاشفين وابن عباد. ولا يرى ملجأ منها بعد التأمل سوى التوجه إلى الله عز وجل، واستخلاص الحكمة أو ما يشبهها، ممزوجة بملامح فنية جذابة تجعلها أقرب إلى الغنائية، طالما أنها نابغة من ذات الشاعر ومعاناته. وهو في هذا لا ينسى الإشادة ببعض المدن التي لها مكانة في نفسه أو ارتباط، كالحرم النبوي وما يحث عليه من توسل بالنبوي الكريم صلوات الله وسلامه عليه؛ مع استذكار حواضر أخرى، كمراكش وقرطبة وإشبيلية، بكل ما توحى إليه وتحفر في قلبه وضميره؛ ومع التوقف قليلاً عند منظمة "الإيسيسكو" التي يرأسها، والتي تحتضن مقرّها مدينة الرباط الأثرية لديه.

وما كان لنبض فؤاده أن يكتمل من غير أن يستحضر شقيقه أحمد الذي سجن بسبب موقف سياسي، وكذا فلذة كبده أحمد الذي اختاره الله

إلى جواره وهو في ميعة الشباب، إذ أفرد له زهاء ثمانية نصوص. وهو في هذا الإطار الرثائي يسترجع ذكرى والدته رحمة الله عليها، فيصورها "الخيمة" التي تظل الحياة.

وبعد، فلو شئت أن أجمل القول في هذا الديوان، لما ترددت في نعته بالإبداع الرائع الذي عبر به الشاعر وفيه عما يخالجه وما يعانیه، مهما تنوعت الأغراض، بفنية متقنة وجمالية باهرة؛ وإن كنت في غير حاجة إلى أن أبرز مدى تمكنه من أدواته التعبيرية التي يمكن اختصار الحديث عنها في التماسك السلس الذي بنى عليه قصائده ومقطوعاته، في انسجام موسيقي يجعل القارئ يتجاوب معه ويندمج بسهولة ويُسْر، في إطار محافظة منضبطة على وحدة الوزن والقافية، والتزامها بعفوية وتلقائية؛ مع التوسل بمعجم أسعفه في التعبير عن نبض قلبه، انطلاقاً من أعماق هذا القلب، برؤية ذاتية داخلية مشحونة بما يفيض به وجدانه، وما له من تأثير حتى على الكلمات وما تحمله من دلالات، إلى حد التجاوز أحياناً لما هو متعارف عليه ومتداول. وهذا هو السهل الممتنع في الإبداع، بل في التجديد الشعري الذي نتطلع إليه.

فهنيئاً للأود العلامة الأديب الأستاذ الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري بإصدار هذا الجزء من ديوانه الذي آمل أن يتبعه بأجزاء

أخرى يُستكمل بها النظر إلى سائر إنتاجه ؛ مع الدعاء لأخوته باطراد
التوفيق والسداد ودوام الصحة والعافية وتمام الهناء والإسعاد.

ومن الله العون وعليه الاعتماد.

الرباط، في 16 رمضان 1435هـ

الموافق 14 يوليو 2014م

المدينة المغربية
في الزجل و الملحون

للدكتور السعيد بنفراحي

مطبعة دار السلام - الرباط 2015

بسم الله الرحمن الرحيم

تعتبر المدينة في المفهوم الجغرافي المادي تجمعاً عمرانياً تلتئم فيه ثلة من الناس يضمهم جوار وتربطهم مصالح مشتركة. وهي في المدلول الحضاري مظهر متطور لحياتهم في هذا التجمع ، بما يكون لهم بالعيش داخله من سلوك يجعله بالنسبة إليهم مجالاً ليس لهذا العيش فحسب ، ولكن كذلك إطاراً للتواصل والتعاون والتفاعل والتحاور والتحاب.

ولعل هذا المستوى من الارتباط هو الذي جعل الناس على وجه العموم، وخلال مختلف الحقب والمراحل، يتخيرون لمواقع إقامتهم المكان الملائم لحياة رغدة هنية وسعيدة، أي الملائم بساكنيه ليكون ملتقى فكرياً ونفسياً تشده أو تشد القاطنين إليه ذكريات وعهود ومواقف، تجعله بالنسبة إليهم وطناً يلتحمون به، مهما تكن التطورات التي يعرفها هذا الوطن، أو يعرفها ساكنوه، بكل ما يمثله لهم وما يؤمنون به من مبادئ وثوابت ومقومات ومرجعيات.

وهو التحام يمس طبيعته وما تزخر به من خيرات، كما يمس أنماط الحياة والسلوك فيه، وما يتصل بذلك كله من معارف وفنون وتقاليد وأعراف هي وليدة الثقافة المتداولة والمتوارثة فيه، بدءاً من تاريخ المكان إلى جهود أهله في تنميته وترقيته والنهوض به ؛ وقبل ذلك في الدفاع عنه. وإنه لوضع لا يتغير إن لم يكن يزيد، حتى حين تكون المدينة تعاني

مشكلات وأزمات، كأن تكون معرضة للتوسع والتضخم ؛ مما قد يجعل السكان يشعرون ببعض الضيق، أمام طغيان المعالم المادية التي قد تغطي بضغوطها المتراكمة، وما ينتج عنها من قيم جديدة تفرزها وتفرضها على المجتمع بما يغير طبائعهم وما كانوا قد ألفوا فيه.

ورغم ذلك تبقى المدينة هي هي، أي قائمة بأهلها وما يتبادلونه فيها من نشاط، باعتبارها الواسطة الجامعة بينهم، والحاوية لرغباتهم وأحلامهم وهمومهم كذلك. ومن ثم لا غرابة أن تكون لها في نفوسهم -ولا سيما منهم الكتاب والشعراء وسائر الأدباء والفنانين- مكانة متميزة يبوئونها فيه رمزاً يكاد يكون مقدساً، بدءاً من اعتبارها موطن المولد إلى مكان النشأة والتربية والتعليم والعمل، بل باعتبارها مناط الوعي الذي تبلور في نفوسهم عبر كل تلك المراحل التي لا يلبث الفرد منهم يستعيد فيها ذاكرته، ويسعى إلى حفظها وصيانتها وتأملها بالكثير من الحنين والفخر والاعتزاز.

ومن ثم لا نستغرب إذا وجدنا المبدعين في مختلف أنماط التعبير يتغنون بجمال طبيعة مدنهم، أو مدن أخرى أقاموا فيها وعشقوها، يستحضرون تاريخها ويستذكرون مآثرها ويشيدون بأعلامها ويطربون لفنونها ويتشبهون بعاداتها وتقاليدها، وربما لجأوا إلى إثارة منافستها مع غيرها، ولا سيما مع المدن المجاورة لها أو المشابهة، مما تنشأ عنه بعض الظواهر الإنسانية كالمدح والثناء وربما الانتقاد والهجاء كذلك.

وإذا كان الأدباء في كل زمان ومكان قد تغنوا بمدنهم على هذا النحو بما هو معروف عن شعراء العربية منذ القديم حتى الآن على سبيل المثال، فإن تعبيرهم—ومن بينهم المغاربة— ما كان ليقصر على العرب من القول، بل تعدوه إلى ما هو عامي، وفق ما نقرأ في هذا السفر النفيس الذي جمع فيه الأستاذ الصديق الدكتور السعيد بنفرحي نخبة من نصوص الزجل والملحون لمبدعين، وصفوا مدنا بعينها وأعربوا عما لها في نفوسهم من مشاعر جميلة.

وعلى الرغم من أن الأمر لم يكن سهلاً بسبب تفرق تلك النصوص وصعوبة الوصول إليها، سواء أكانت منشورة في دواوين أم مدمجة في أقراص غنائية، فإن الباحث على ما هو معروف عنه من دؤوب ومُثابرة ومن حرص وصبر، قد وفق إلى جمع باقة منها لا شك أنها تبرز مدى شغف أصحاب هذه النصوص بالحواضر التي عاشوا فيها أو تعلقوا بها فأحبوها ولم يكتموا هذا الحب، بل كشفوه وأذاعوه مشيدين به ومعتزين.

وإني لأهنئ الأخ الكريم الأستاذ الدكتور السعيد بنفرحي على هذا الإنجاز الذي هو لا شك لبنة تضاف إلى ما أغنى به المكتبة المغربية من دراسات قيمة ؛ مع الدعاء له بدوام عون الله وتوفيقه واطراد مدده وسداده.

الرباط، في 24 ربيع الأول 1436هـ

الموافق 16 يناير 2015م

من أوليباريس إلى لوباريس
سيرة أسرة أندلسية مهجرة من الأندلس إلى الرباط

للدكتور محمد نجيب لوباريس

مطبعة الأمنية - الرباط

-2015-

بسم الله الرحمن الرحيم

لا يخفى أن الأسرة هي الخلية التي ينتمي إليها الإنسان وتتنظم فيها حياته، مما يجعله قوي الارتباط بها وشديد الحاجة إليها في مختلف شؤونه الخاصة والعامة، بحب واعتزاز يتجاوزان آصرة الدم والقربة وما ينتج عنها من عواطف ومشاعر قد تبلغ درجة العصبية، إلى ما يجمع أفرادها من أعراف وعادات وتقاليد ومصالح مشتركة. وبقدر ما يتحقق ذلك أو يتعذر، تتسع الأسرة أو تضيق وتستمر أو تتوقف.

وكلما كانت هذه الروابط قوية، زادت إمكانات التوسع والاستمرار، ولا سيما حين تتوافر للعيش مواقع محصنة ووحدات جامعة، سواء على مستوى المنزل أو الحي أو المدينة أو الوطن. وإذا ما حدث ما يفرض اهتزاز وضع الجماعة، كاضطرار أفرادها إلى الهجرة لظروف معينة، فإن عناصر التشبث تزيد بحكم الحنين إلى ما كانوا عليه واستحضار ما عاشوه، وربما تعدوا ذلك إلى التمسك به ومحاولة إعادة بنائه.

وهو ما حدث بالنسبة للموريسكيين الذين أجبروا على مغادرة ديارهم بالأندلس، إثر تسليم أبي عبد الله آخر ملوك بني الأحمر لمدينة غرناطة إلى فرديناند وإيزابيلا ملكي إسبانيا الكاثوليكين، باتفاقية انهزامية (897هـ-1492م) وما عانوا بعدم احترام الطرف المتغلب لها من مأس وأحزان. فكان

أن لجأوا للإقامة في البلدان التي احتضنتهم بدافع لحمة الدين واللغة والقيم التي نشأوا في ظلها طوال ثمانية قرون من الوجود الإسلامي في الأندلس. وهي أقطار الشمال الإفريقي، بدءاً من المغرب والجزائر إلى تونس وليبيا، وكذا أقطار مشرقية كالشام ومصر.

*** **

وقد كان للمغرب النصيب الأوفر من تلك الهجرات التي تسنى لأفرادها أن يستقروا به في حواضر أهمها الرباط وسلا وفاس وتطوان وغيرها من مدن شمال المغرب وحتى جنوبه. ولعل من أبرز الأسر الأندلسية التي أقامت في الرباط، آل أكديرة وبركاش ودينية وفنجيرو وطريدانو وپلامينو وپيرو وفرشادو وكراكشو، وكذا لوباريس الذين وضع فيهم الأخ الكريم الأستاذ الدكتور محمد نجيب لوباريس هذا السفر التوثيقي الهام الذي يسعدني أن أكتب له هذه الكلمة التقديمية الوجيزة.

والحق أنني لم أستغرب تأليف الصديق نجيب لهذا الكتاب الدال على مدى اعتزازه بأندلسيته، وما بذل من جهد حثيث وهو ينتبع شجرته العائلية، من خلال التقاييد التي توافرت له وما وزع من استمارات على المنتسبين إليها، وغيرها من الوسائل التي يسرت له استكمال ما قصد إليه في مؤلفه، من رجوع إلى بعض المصادر التاريخية وكتب التراجم، إضافة إلى معرفته الشخصية والوثائق الخاصة؛ مما أسعفه في التعريف بمن كان لهم

من أفراد أسرته دور كبير أغنوا به عدة مجالات ساعدت على الازدهار الذي عرفته مدينة الرباط. وهو ما توسع فيه الأخ لوباريس بدقة متناهية.

وقد دفعه هذا الاعتزاز بأندلسية أسرته والتأسي على ما أصابها وغيرها من محن، إلى اعتبار هؤلاء الموريسكيين قد أصبحوا "بترحيلهم إلى أرض غير أرضهم دخلاء ولو بين إخوان لهم في الدين"، وغدوا -كما ساق ذلك اعتماداً على بعض الذين أرخوا للرباط- "غرباء بين أهل يرتابون في عيشهم وحالهم، وحتى في تدينهم، ويتضايقون من هيئتهم ولباسهم وطعامهم وشرابهم ولغتهم القشتالية"، إلى حد أطلق السكان عليهم "مسلمي الرباط".

*** **

وعندي أنه إذا كان المغرب قد استقبل أكبر عدد من هجرات الموريسكيين، فما ذاك إلا نتيجة إحساس لديهم بأن وفودهم عليه إنما هو رجوع إلى الأصل، أي إلى أرض الوطن؛ لما كان للمغاربة -عرباً وأمازيغ- من دور كبير وأساسي في إقامة دولة الإسلام بالأندلس وعمارتها والمساهمة الكبيرة في إعطائها ما كان لها من تألق حضاري وثقافي؛ منذ فتحها طارق بن زياد (92هـ-711م) إلى ما قامت به مختلف الدول المتعاقبة على حكم المغرب، ولا سيما دولة المرابطين التي مكنت بقيادة يوسف ابن تاشفين من

بقاء الوجود الإسلامي فيها أربعة عقود، بعدما كادت تلفظ أنفاسها في عهد ملوك الطوائف.

وكان لهذا الرجوع إلى الأصل أثر حميد تجلّى في المجالات التي أغنى بها العائدون ذكّم التآلق، وخاصة بفضل أسر بعينها ظلت — وهي سعيدة بذاك الرجوع — دائمة الافتخار بما حملت معها، وما كان لأعلامها من دور متميز بما قدموا من إسهام في كل تلك المجالات. ولا غرو في ذلك وقد وجدوا في مُهاجَرهم من الترحيب ما يغريهم بذلك ويشجعهم عليه، مما جعلهم لا يستقرون معززين مكرمين فحسب، ولكن يندمجون ويواصلون أداء ما كانوا مبرزين فيه، من علوم وآداب وفنون وحرف وصناعات ومهارات، وما كانوا تعودوا عليه من تقاليد حضارية واجتماعية ينشرونها ويؤثرون بها كذلك.

وما أظن نعت "مسلمي الرباط" وصفاً قدحياً كما قد ورد عند بعض المؤرخين، بقدر ما هو إشارة إلى ما كانوا يتميزون به من مظاهر اجتماعية، هي وليدة البيئة الإيبيرية، وإن اعتُبرت يومئذ غريبة في المجتمع المغربي على العموم، والرباطي على الخصوص.

ولو كان في هذا الوصف ما تشم منه رائحة القدح لما ظل جميع الموريسكيين يفخرون بأندلسيتهم ويشيدون بها، إلى حد أن العلماء

المنتسبين إليها كانوا يصرون على ذكرها في توقيعاتهم وسائر مؤلفاتهم. وهي ظاهرة ما زالت متواصلة حتى اليوم.

*** **

ولا أدل على ذلك من الكتابات التي صدرت بشأن الموريسكيين عامة، أو ما حرره بعض الأحفاد عن أسرهم، على نحو ما كتب الكولونيل المرحوم محمد الخامس بركاش بالفرنسية في "أسرة في قلب التاريخ". ومثله هذا التأليف النفيس الذي وضعه الأخ الأود الأستاذ نجيب لوباريس عن أسرته، محققاً تسميتها وما كان لها منذ وصولها إلى الرباط وقصبتها، في تتبع لفروعها ومن كان فيها من أفراد حرص على ذكر أسمائهم وما تيسر له من معلومات عنهم -ذكوراً وإناثاً- مع الوقوف عند الأعلام الذين كان لهم حضور طبيعي بارز في مناصب جهادية وإدارية أو علمية وأدبية؛ من أمثال الرايس إبراهيم بن علي لوباريس والجنرال عبد القادر لوباريس والفقير العلامة المشارك عبد الرحمن بن عبد الله بن إبراهيم لوباريس وشقيقه الأديب الشاعر عبد القادر. وهي سلسلة مجيدة زانها ما وضع لها من جداول تفرعية وصور شخصية؛ من غير أن يغفل فيها ذكر النابهين من جيله. وقد أحسن صنعا حين لم يهمل إدراج سيرته الذاتية في الكتاب ولو مختصرة.

وهي—على قصرها— تظهر ما للصديق نجيب من مكانة في أسرته خاصة وفي الرباط والمغرب عامة. وقد تسنى لي في إطار النادي الجرائي ومن خلال مشاركته في أنشطته، أن ألمس عن قرب ملامح نبوغه في جميع الميادين التي يرتادها بتفوق، بدءاً من الصيدلة إلى القانون الدستوري والعام، ثم إلى الأدب والشعر ؛ مما يثير الإعجاب.

فليهنأ بهذه المؤهلات التي أحظاه الله بها، والتي حثت طموحه على تأليف كتاب عن أسرته، وإن لم يكن سهلاً جمع مادته. وإنه لسفر جليل يُحمد له ما بذل فيه من جهد كبير قدّم به خدمة جليلة لأسرته وللرباط ؛ فلعل الله أن يعينه ويوفقه لمواصلة البحث عن الجوانب الغميسة من تاريخ هذه المدينة وما تزخر به أسرها من أعلام ؛ مع الدعاء إلى العلي القدير أن يحفظه ممتعاً بالصحة والعافية، ورافلاً مع أهله وذويه في سعادة وهناء دائمين.

والله من وراء القصد.

الرباط، في 28 ربيع الثاني 1436هـ

الموافق 18 فبراير 2015م

هي أمي الحبيبة

(ديوان زجل)

للشاعر الأستاذ عبد الكامل دينية

منشورات جمعية رباط الفتح

طبع دار أبي رقرق - الرباط - 1437هـ = 2016م

بسم الله الرحمن الرحيم

يتميز الإبداع الشعري الحديث والمعاصر في المغرب بتعدد أنماط كتابته وتنوع أدوات تعبيره. فالجانب القصيدة العمودية المعربة التي ما زالت محافظة على غنائيتها المطربة، رغم منافسة المحاولات التجديدية المختبئة غالبيتها لغموضها- خلف الحداثة، يبرز الشعر الشعبي في صيغته المختلفة، بدءاً من الملحون الملتزم بتعدد أشكاله وأغراضه، إلى ألوان الزجل العديدة وسائر ما ينتجه المبدعون بالأمازيغية والحسانية؛ دون إغفال الذين يعربون عن مشاعرهم بالفرنسية أو الإنجليزية أو الإسبانية.

وعندي أن هذه الأشعار، على ما يبدو بينها من تباين في اللغة وتباعد في الأسلوب، تبقى كاشفة بمضامينها عن قدرة المبدعين المغاربة على الإعراب عن وجدانهم الخاص وأحاسيسهم العامة، عبر سبر أغوار اللغة وفتح أسرارها وفك رموزها، ودالة في الوقت نفسه على رسوخ الهوية الوطنية وعمق الإيمان بها في افتخار واعتزاز. وذلك ما يلاحظه كل من يقف على نصوصها ويتذوقها ويتجاوب معها، فضلاً عن يتأملها وينكب عليها بالدرس والتحليل، ويلحظ ترنيماتها المرقصة وصورها الدقيقة وسبكها الرائع وغنائيتها الجميلة، ويدرك في النهاية عمق العملية الشعرية التي أجزاها أصحاب هذه النصوص.

وذلكم ما لا أخفي أنه يخامرني كلما وقفت على ديوان كامل أو مجموعة متفرقة أو مختارات منتقاة ؛ لأن الشعر -كما أقول دائماً- هو الشعر، أي إما أن يكون أو لا يكون، مهما تكن اللغات التي يستعملها أو الأساليب التي يتوسل بها أو القوالب التي يتخيرها، على ما بين الشعراء من تفاوت في الجودة ومستوى التعبير والتحكم آخر الأمر في ناصية القول.

*** **

في هذا السياق الممتع البهيج، سعدت بالباقة الزجلية التي أطلعني عليها الشاعر السيد عبد الكامل دينية، والتي جعل لها هذا العنوان الدال: "هي أُمِّي الحبيبة"، إذ إلى والدته -رحمها الله- يهدي هذه الباقة المفعمة بالحب والوفاء والعرفان. وتضم هذه الباقة أربعة وثلاثين نصاً جمعها في هذا الديوان الذي هو الثالث بعد "ونعم الجمال" و"إلا ضاق الحال".

وإذا كان ما يلفت النظر في هذه الدواوين، فهو الملمح الغنائي الذي يستبد بالشاعر ويلح عليه بعفوية وتلقائية، وأكد أقول بطبع وسجية. وهو ما لا يتسنى لجميع مؤلفي النصوص المغناة. ولعل المنتبِع لما يذاع منها عبر مختلف الإذاعات والقنوات والمواقع، لا يلبث أن يلاحظ ما في بعضها من جودة وروعة على سائر المستويات، ولكن يرصد كذلك في بعضها الآخر جوانب نقص يعترِبها، بدءاً من سطحية مضامينها وضعف كلماتها وبنائها عامة، إلى الخلل في علاقتها مع اللحن والأداء.

وما إخال الأستاذ دينية إلا واعياً بهذا الأمر، مما جعله يوثق الاتصال بزملائه الفنانين من شعراء وملحنين ومغنين، وخاصة بمن هم في نقابة الموسيقيين ومكتب حقوق التأليف. ومعروف أن أقطاب الغناء في القديم والحديث، سواء منهم الشاعر أو الملحن أو المغني، كانوا قبل إصدار أغنياتهم والخروج بها إلى العموم، يلتقون في جلسات للتنسيق، حتى لا يكون تنافر بين الكلمة واللحن والأداء، وربما عرضوا إنتاجهم في أندية ومجالس أدبية، واستمعوا إلى ما قد يقدم لهم من نقد وتوجيه.

*** **

وغير خاف أن الأخ الكريم عبد الكامل دينية كان ينتمي في نطاق وظيفه الإداري إلى عالم الدبلوماسية التي سبق له أن نهض فيها بمهام في عدة بلدان، على نحو المسؤولية التي تحملها قنصلاً عاماً في جدة التي كان لي فيها أول لقاء معه، بمناسبة الزيارة التي قمت بها للمملكة العربية السعودية الشقيقة، مكلفاً بتبليغ رسالة سامية من جلالة الملك محمد السادس نصره الله إلى أخيه المرحوم الملك فهد خادم الحرمين الشريفين. وقد سنحت لي هذه المناسبة التي صادفت منتصف شعبان 1422هـ الموافق أواخر نونبر 2001م، أن أسعد بأداء عمرة مباركة كنت فيها مبتهجاً برفقة السيد دينية الذي أشهد أنه كان بحكم منصبه يعتبر إطاراً بارزاً في الميدان الدبلوماسي يومئذ.

إلا أنه ما كاد يعود إلى أرض الوطن بعد انتهاء مهمته وانقضاء فترة وظيفته، حتى انغمر في مجالات الأدب والموسيقى، وانخرط في منتديات ثقافية ومؤسسات إعلامية، يشارك في أنشطتها بهمة عالية، ورغبة في التواصل وتبادل المعرفة، وحرص على الاستفادة والاستزادة؛ مما جعله إلى جانب اهتماماته الفنية الخاصة، يلتحق بجمعيات لفني المديح والسماع، ويجدّ في الأخذ عن القائمين عليها، مشبعاً بروحانية هذين الفنين ومدركاً أهميتهما بالنسبة إليه فيما هو بصدده في عالم الشعر والموسيقى والغناء.

ومع إكباري لطموح الصديق العزيز الأستاذ عبد الكامل دينية، وتقديري لما يبذل من جهود حثيثة لتحقيق ما يسعى إليه، بحب وتفان وإخلاص، فإني أهنئه على هذا الإصدار الزجلي الجديد، وأدعو العلي القدير أن يبارك له في إنتاجه وسائر أعماله، وأن يديم عليه عونه وتوفيجه ويسدد خطاه.

والله من وراء القصد.

الرباط، في 19 محرم 1437هـ

الموافق 2 نونبر 2015م

مكونات تلقي الشعر لدى المغاربة

تقريب وصفي لحدود متابعتها من خلال

نماذج على العهدين المريني والسعدي

(أطروحة دكتوراه)

للدكتور عبد الله حاتم

قيد الطبع

بسم الله الرحمن الرحيم

للشروح الأدبية على العموم، والشعرية منها على الخصوص، أهمية في التأليف لا تخفى على كل من يعنى بالأدب العربي في المغرب، ويقف على تراثه الغني الخصب. فهي تعكس مكانة الشراح وما لهم من قدرات على الغوص في أعماق النصوص التي يشرحونها، تفسيراً وتحليلاً وتأويلاً، وفق ما يتأملون من قضايا وما يتخيرون لها من مناهج وآليات، بدءاً من مسائل اللغة والنحو والبلاغة والعروض، إلى ما هو فقه أو حديث شريف أو سيرة نبوية وغير ذلك؛ مما يكشف ثقافتهم ومدى تصرفهم في مضامين ما يشرحون، بالتجميع والتلخيص والاستشهاد، ويكشف كذلك ما يتمتعون به من مشاعر خاصة وأحاسيس عامة، هي التي غالباً ما تضي شاعرية على هذه المضامين.

وعلى الرغم مما يذهب إليه بعض نقاد الأدب المحدثون، من اعتبار هذا التراث مظهرًا لجمود الفكر المغربي وتوقفه عن التجديد والإبداع، فإن أهميته تكمن في تقريب أغراضه وما تتضمن من علوم ومعارف، إلى الأجيال المتعلمة وتدريبها بالقراءة المتأنية الفاحصة على الفهم والتذوق والتقويم. وهو ما يسر المحافظة على هذه العلوم والمعارف واستمرار تداولها، ولا سيما في عصور واجه فيها المغرب وبقيّة الأقطار العربية ظروفًا وأزمات داخلية

وتحديات وأخطاراً خارجية أدت بطبيعة إكراهات مواجهتها إلى الجمود والتوقف، وإن لم تخل هذه العصور من فترات مستقرة أتاحت بازدهارها بعض الإضافة إلى ذلك التراث.

*** **

وتلكم حقيقة لا شك أنها كانت خلف العناية الكبيرة التي أولها المعاصرون لهذه الشروح، وخاصة منهم الدارسين الذين أنجزوا وما زالوا ينجزون عنها رسائل وأطاريح جامعية أبانت ما تحتويه من ثراء في مختلف المجالات المعرفية والإبداعية والمنهجية. وذلكم ما تجليه هذه الأطروحة التي هيأها الباحث السيد عبد الله حاتم لنيل الدكتوراه من كلية اللغة العربية بمراكش. وأذكر أنه حين زارني وأهداني نسخة مرقونة منها، ورغب إليّ أن أكتب له عليها كلمة تقديم، ترددت قليلاً وكدت أعتذر له، لولا أنني أحسست بشعور بهيج جعلني أستحضر صلتي به، إذ كنت عرفته قبل نحو عقدين، وبالضبط عام أربعة وتسعين وتسعمائة وألف، حين كنت أشارك بمحاضرات في الأدب المغربي والمناهج، ألقياها على طلاب السنة الثانية من السلك الثالث ؛ وكان أحدثه الصديق العزيز الأستاذ الدكتور حسن جلاب الذي كان يومئذ عميداً حازماً لهذه الكلية.

وبحكم التزامات عامة وظروف شخصية كانت لا تسمح لي بالسفر أسبوعياً إلى مراكش، فقد كنت أنتقل إليها للقاء الطلاب مرة كل أسبوعين،

على أن يحضروا -هم- إلى الرباط في المرة الموالية. وأشهد أنهم كانوا حريصين على ذلك وعلى أن يصلوا مبكرين، ليقضوا معي يوماً كاملاً في منزلي بالهرهورة، حيث كنت أسكن في تلك الفترة ؛ وكان عددهم أربعة فيما أذكر. وكنت أقدر فيهم فائق جدهم وعظيم شغفهم بالدرس والمشاركة بالمناقشة وتهيئ العروض.

ولا أخفي أن مما زاد ابتهاجي بتلقي أطروحة السيد حاتم، أن الذي أشرف عليه في إنجازها هو الأخ الأود الأستاذ العميد السيد حسن جلاب الذي تمتد معرفتي به إلى أزيد من أربعين سنة، كانت العلاقة خلالها تتأكد بيننا على المستوى العلمي والإنساني، في صفاء ووفاء وإكبار وتقدير.

*** **

ولأول نظري في الأطروحة، تبين لي من عنوانها أنها تنطلق من مصطلح "التلقي" الذي يلخص منهجاً غريباً ظهر عند بعض النقاد الألمان قبل نحو خمسة عقود، ثم التقطه باحثون عرب ومغاربة. ويعتمد اعتبار القارئ في تفاعل مستمر مع النص المقروء، ليس فقط من الناحية العلمية أو الأدبية، ولكن كذلك من الناحية الجمالية، بما يمثله من عناصر إبداعية، قد تتحول عند القارئ بما يكون له من قدرة على التحليل والتأويل والاستخلاص، إلى عناصر جديدة غير التي أثارها مؤلف النص. وهو ما يجعلهما شريكين في إنشائه.

وإدراكاً من الباحث السيد حاتم للغاية من هذا المنهج، فإنه لم يتردد في تطبيق مفرداته، لكن برؤية أصيلة بدا لي وكأنه باعتمادها يسعى إلى بلورة نظرية أدبية عربية - إن لم أقل مغربية - يؤسسها منهج يرتكز على مقومات الثقافة الإسلامية المؤطرة، على ما قد يكون بينه وبين مناهج أخرى من تشابه أو تقارب. وقد أتاحت هذه الرؤية للباحث أن يتناول مكونات تلقي الشعر لدى المغاربة بتقريب وصفي لحدود متابعة ظاهرة الشروح الشعرية التي وجدها محققة لهذه الغاية. فاختار منها للدرس نماذج ستة، منها ما هو مطبوع وما هو مخطوط، ثلاثة منها مريضة هي:

1- أنس الوحدة في شرح البردة لأبي القاسم بن ابراهيم الماجري.

2- إظهار صدق المودة في شرح البردة لابن مرزوق الحفيد.

3- رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة للشريف السبتي.

وثلاثة أخرى سعدية هي:

1- إتحاف ذوي الأرب بمقاصد لامية العرب لسعيد الماغوسي.

2- إيضاح المبهم من لامية العرب للماغوسي كذلك.

3- الفريد في تقييد الشريد وتوصيد الوبيد لأبي القاسم الفجيجي.

وبآلية وصفية تشخيصية لهذه الشروح، بمكوناتها التعليمية المتعددة النابعة من ثقافة أصحابها الموسوعية، والمعبرة عن مدى التجاوب مع هذه الثقافة، تمكن الباحث من إلقاء الضوء على دور القارئ في تصور النص

وتمثله نظرياً وتطبيقاً، واكتناه محدداته ومقاييسه، والكشف عن مضمرة وأبعاده ودلالاته في نطاق الحدود التأطيرية والمسائل المثارة -نقدية وغيرها- إلى جانب الأهداف المتوخاة التي رسمها الشراح.

لهذا وغيره مما لا تتسع له كلمة تقديم، يسعدني أن أعرب عن خالص تنويهي بهذه الأطروحة وصادق تقديري للجهد الذي بذله فيها الأستاذ الدكتور عبد الله حاتم، داعياً له أن يديم الله عليه عونه وتوفيقيه، ويسدد خطاه ويبارك سائر أعماله.

فهو الهادي إلى سواء السبيل.

الرباط، في 28 محرم 1437هـ

الموافق 11 نونبر 2015م

ديوان اليوسي

تحقيق:

الدكتور عبد الجواد السقاط

مطبعة دار المناهل - الرباط

يناير 2016م

بسم الله الرحمن الرحيم

لعل مما يُغني البحث العلمي ويُعمق تخصص القائم به، أن يكون هذا البحث منصباً على قضايا شائكة، تحتاج حتى تتبلور وتنتضح إلى نصوص غميسة جديدة، وإلى دراسات فرعية دقيقة تُكمل ما تقتضي مختلف جوانبها من تحليل واستنتاج، ولا سيما حين تكون هذه القضايا متصلة بموضوعات متقاربة في المنظور إليها وفي الزمن الذي أثّرت فيه.

وذلكم ما يبدو جلياً عند الباحث المتمكن الأستاذ الدكتور عبد الجواد السقاط، الذي كان اهتم في دراساته الجامعية العليا بالفترة الممتدة من أواخر القرن العاشر الهجري إلى الثاني عشر؛ وكأنها تشكل عنده مشروعاً يحرص عليه ويتطلع إلى تحقيقه.

وفي سياق هذا المشروع، نشر رسالته لنيل الدبلوم عن "الشعر الدلائي" في 1985م، ثم أتبعها في 2004م بأطروحته لدكتوراه الدولة عن "بناء القصيدة المغربية في فجر الدولة العلوية: 1045-1139هـ". وهما بحثان قيمان كنت سعدت بالإشراف عليه في إنجازهما وبكتابة تقديم لهما، تقديراً لجهوده الحثيثة، وما يقدم من إضافات غنية وجادة للمكتبة الأدبية المغربية.

وها هو يواصل هذه الجهود بنشر الديوان الذي حققه لليوسي، والذي طالما تاق الباحثون إلى إصداره لأهميته ؛ خاصة وأنه لم يظهر أثر للديوان الذي كان حققه الباحث التونسي الأستاذ محمد المنيف، في رسالة جامعية قدمها في الجزائر قبل أزيد من أربعة عقود.

*** **

واليوسي - كما لا يخفى - هو أحد نبغاء الزاوية الدلائية الذين عاشوا في الفترة المذكورة، وكان له حضور بارز ومتميز بين معاصريه ؛ بل ظل له هذا الحضور مستمراً حتى بعد وفاته، وما يزال. والسبب في إحرازه هذه المكانة أنه تفرد بثقافة موسوعية متينة، أتاحت له أن يخوض في مجالات متعددة ومتنوعة.

وقد تسنى له تحصيل هذه الثقافة من خلال مختلف جولاته وتنقلاته، بدءاً من بيئته اليوسية في الأطلس المتوسط حيث ولد ونشأ، إلى سوس ومراكش ودكالة وتارودانت وفاس ومكناس ودرعة حيث الزاوية التمكرونية، مع التركيز على الزاوية الدلائية التي فيها كان أول استقراره. وهو ما طبع أصالته وقوى ذكائه وأغنى تجربته، وعمق خبرته بالناس والحياة، ومكنه أن يندمج في المجتمع المغربي وينصهر فيه.

تضاف إلى ذلك معاناته منذ تخريب الزاوية الدلائية سنة تسع وسبعين وألف في عهد المولى الرشيد، وما كان له من مواقف جريئة، سواء

مع علماء فاس الذين لم يطبقوا تفوقه ، أو مع السلطان المولى إسماعيل الذي لم يكن اليوسي —على حسن علاقته به— يتردد في تنبيهه، انطلاقاً من منظوره لمسؤولية المثقف والتزام قول الحق، بخطاب وعظي حكيم، لما قد يصلح الرعية والبلاد. واعتبر بذلك عالم المغرب ورائد فكره ومثال نبوغه ورمز عبقريته، ومجدد المائة الحادية عشرة التي انتهت إليه فيها رئاسة العلم.

وتم الاعتراف له بهذا التمييز حتى في البلدان المشرقية التي رحل إليها، وكان اتجه لأداء فريضة الحج ؛ فتوقف في طرابلس ليبيا ومصر، وبهر من لقي من علمائهما الذين استجازوه. ففي القاهرة أجاز الفقيه الخرخشي شارح مختصر خليل بإجازة في الحديث بعد أن قرأ عليه ورقات من أوائل البخاري. وفي طرابلس أجاز الفقيه محمد المكني وآخرين استجازوه بقصيدة وصفوه فيها بـ "عالم أهل الأرض"، فقدم لهم إجازة شعرية كتبها عن إذنه ولده محمد اليوسي الذي كان رافقه في هذه الرحلة، وهو جامع ديوانه، وذيلها الوالد بما يؤكد صحة هذه الإجازة.

*** **

وكان اليوسي إلى جانب معارفه وما أتقن من علوم، ذا ثقافة أدبية عالية —مدرسية وشعبية— تجلت فيما صنف من مؤلفات، وما حرر من رسائل بأسلوب جزل عذب، وما أبدع من شعر أصيل متين في لغته متعدد

في أغراضه، ودالٌّ على التحكم في إيقاعاته وعلى تمكنه من سائر أدوات التعبير، مع القدرة على الارتجال في بدهة وسرعة خاطر.

وهو ما يكشفه الجهد الكبير الذي بذله الصديق العزيز الأستاذ الدكتور عبد الجواد السقاط في تحقيق هذا الديوان، إذ قام بجمع شعره من مختلف نسخه المخطوطة، وما كُتب عنه أو أورده هو في مصنفاته. وأحصاه بدقة فأوصل العدد إلى ثلاثة وسبعين وتسعمائة وثلاثة آلاف بيت، موزعة على قصائد رقّمها ورتبها حسب حروف الهجاء، ووضع عليها هوامش بالتعليقات اللازمة. وزاد فضبط النصوص حتى تكون سليمة الشكل سهلة القراءة، مع الإشارة في كل نص إلى بحره وما فيه من مسائل عرضية.

وأكمل عمله في الديوان بأن ذيله بمجموعة من الجداول والفهارس التي قد تعين الدارس والقارئ على الاستفادة التامة منه. ومساعدةً للباحثين على توسيع معرفتهم باليوسي ومصادره عمل على تكميل البيبليوغرافيا التي كنتُ وضعتها قبل أكثر من ثلاثة عقود، فأغناها بإضافات، متتبعاً ما كُتب حوله من دراسات مستقلة، وما قدم منها في ندوات، وما صدر من مقالات في الصحف والمجلات، وكذا ما نُشر في المواقع الإلكترونية. ولعمري إنه لعمل جليل ما أحوج الدارسين إليه وإلى الاقتفاء به.

وإني إذ أعبر عن فائق سعادتي بهذا الإنجاز العلمي الرصين، الذي جاء على نحو ما عودنا الأخ الأود الأستاذ الدكتور عبد الجواد السقاط، دقة

وإتقاناً، لأود أن أهنته عليه، معرباً عن فائق تقديري للجهد الذي بذله
فيه، ومتمنياً له دوام التوفيق واطراد السداد.

والله من وراء القصد.

الرباط، في 20 صفر الخير 1437هـ

الموافق 2 دجنبر 2015م

المحمديات
قصائد في مدح
صاحب الجلالة الملك محمد السادس
1999-2015

إعداد وتصدير:
عبد الحق المريني
مؤرخ المملكة المغربية
والناطق الرسمي باسم القصر الملكي

المطبعة الملكية-الرباط
1437هـ-2016م

بسم الله الرحمن الرحيم

سجل التاريخ وما زال يسجل بمداد الفخر والاعتزاز، ما يكنه الشعب المغربي من مشاعر المحبة والتقدير للموك دُوله المتعاقبة، ولا سيما ملوك الدولة العلوية الشريفة الذين ارتبط بهم في وفاء وولاء ؛ تأكيداً لما يلحمه بهم من عهود البيعات الشرعية ومواثيقها المتينة، وعرفاناً جميلاً بما بذلوا لحفظ كيان الوطن وحماية عقيدته وصون وحدته، والنهوض بتنميته ورد أي عدوان عليه.

وقد كانت معظم الوقائع والأحداث فرصاً للتعبير عن عميق التشبث بهذه العهود والمواثيق، بدءاً من إحياء ذكريات الأمجاد الوطنية إلى الاحتفاء بالأعياد الدينية والمواسم الشعبية، وما إليها مما تتيحه الحياة العامة وما ينسج فيها من علاقات حميمة، لا تلبث لرسوخها أن تنتج تقاليد ثقافية متميزة. ولا أدل على ذلك من إقامة ذكرى المولد النبوي وما يرتبط بها من طقوس يكون فيها للأدب، ولا سيما الشعر دور بارز. وهو الذي تمثله "المولديات" سواء على مستوى النظم أو الإنشاد، وما يراعى فيهما من مزج مُحكم بين استحضار السيرة العطرة لصاحب الذكرى عليه الصلاة والسلام، وبين الإشادة بملك البلاد الحريص على التذكير بهذه السيرة، والداعي إلى التمسك بها قيمةً رفيعةً لسلوك المواطنين وركيزةً داعمةً لتدينهم.

وإلى جانب هذه المناسبة كان رثاء ملك يُتوفى إلى رحمة الله، وتهنئة من يبائع خلفاً له، فرصة للتعبير عن مدى التعلق بالعرش العلوي المجيد. ثم أصبح الاحتفال بعيد العرش على الخصوص منذ 1933 في عهد جلالة الملك مولانا محمد الخامس طيب الله ثراه، من أهم المناسبات التي غدت بأثرها الكبير في إذكاء الشعلة الوطنية، مكوناً أساسياً لتلك التقاليد، ومحفزاً فاعلاً لبلورة قيم مثلى ومبادئ سامية. وهي كلها مقومات لا تلبث أن تتجسم في شخص جلالة الملك، عبّر ما يتحلى به من سجايا، وما يعلن من مبادرات وما يتخذ من مواقف وما يحقق من منجزات، وما يمثل بهذا وغيره من نموذج متفرد يتعلق به المواطنون ويتطلعون لاقتفائه والإشادة به، في تعبير يصطبغ بالروح الوطنية التي غدا بها غرضاً متميزاً يعرف بـ "العرشيات".

وإذا كانت هذه الروح خلال فترة الحماية قد تجلت في الكفاح والجهاد من أجل استرجاع الحرية والاستقلال، فإنها أصبحت بعد التحرير تنطلق من الدوافع النضالية نفسها، لتحقيق نمو المغرب وتقدمه وبلوغ رقيه وازدهاره، واستعادة السليب من أراضيه ورفع سائر التحديات التي تواجهه ؛ وقبل هذا وبعد لتركيز الوعي بشرعية إمارة المومنين، وما لها من تأثير على حفظ وحدة المغرب وسيادته وأمنه واستقراره.

ولعل أحداً لا يحتاج إلى دليل لإدراك ما بلغه الوطن من شأو بعيد في هذا المضمار، في ظل جلالة الملك الحسن الثاني أكرم الله مثواه، وخاصة في

العهد المحمدي الذي نَسَعَدَ فيه بقيادة صاحب الجلالة الملك محمد السادس أطال الله عمره وأدام نصره. وهو ما فتى المواطنون بجميع فئاتهم يعربون عنه بصدق وإخلاص، وبعفوية وتلقائية، وبالتحام ثابت المقومات والمرجعيات. وذلك ما يظهر في إنتاج الأدباء والفنانين الذين يتوسلون بمختلف أنماط التعبير الغنية وأدواتها المتعددة لإبراز نبيل عواطفهم نحو جلالته. وفي طليعتهم شعراء المُعرب والملحون والأمازيغية والحسانية الذين يواكبون في "المحمديات" التي ينشئونها، مسيرة النهضة الشاملة التي يقودها -حفظه الله- بإيمان راسخ وفكر ثابت، وبمبادرات جريئة وحكمة متبصرة، والتي تتجاوز فعالياتها الحثيثة حدود الوطن، لتلقي بآثارها التنموية الحميدة على كثير من البلدان الصديقة والشقيقة.

وعلى الرغم من أن تتبع جميع ما يقوله هؤلاء الشعراء، في عيد العرش وغيره من المناسبات الوطنية، كعيد الشباب المجيد وذكرى المسيرة الخضراء المظفرة -وقد نُشر بعضه- يتطلب إصدار ديوان ضخم أو موسوعة في أجزاء عديدة، فلا أقل من وضع سفر مختارات يكون بين أيدي الشباب والمواطنين كافة، متضمنا منتخبات مما فاضت به قرائح أولئك المبدعين وجاشت به أحاسيسهم الصادقة. وهو ما تبدو الحاجة ماسة إليه.

ولعل هذا الهدف هو ما قصد إليه الصديق العزيز السيد عبد الحق المريني، من نشر هذه الباقة الرائعة، باعتبارها عربون حب ورمز امتنان،

وباعتبارها كذلك رصيد منجزات حافلة وسجل مواقف خالدة، مما يجعلها وثيقة تاريخ دالة من خلال ما يفعمها من أحاسيس خالصة، على مدى التعلق بالعاقل المفدى وعظيم الاعتزاز به ودائم الدعاء له بالعز المكين والنصر المبين.

وقد وفق الأستاذ المريني في انتقاء زهرات هذه الباقة المحمدية، بما له من خبرة معرفية وذوقية في إعداد مجموعات شعرية سبق نشرها، ثم بتخصصه في الدراسات المغربية، ولا سيما شعر الجهاد الذي قدم فيه أطروحة دولة قيمة، وربما قبل هذا وذاك بحكم موقع المسؤولية التي يتحملها، مؤرخاً للمملكة وناطقاً رسمياً باسم القصر الملكي.

وهي كلها مقتضيات توافرت للأخ الكريم الدكتور عبد الحق المريني الذي أعرف مدى شغفه بالمطالعة والكتابة، وأشهد بما يبذل من جهود كبيرة لتحقيق هذا الشغف. فله مني خالص التقدير والإكبار، وصادق الدعاء إلى العلي القدير أن يديم عليه فائق عونه وتوفيقه، ليواصل هذا الجهد لمزيد من الإنتاج النافع، حظياً برضى مولانا أمير المومنين أيده الله بعزه المكين ونصره المبين.

والله من وراء القصد.

الرباط، في 14 ربيع الثاني 1437هـ

الموافق 25 يناير 2016م

تكريم
الشاعر مولاي علي الصقلي
أمير الشعراء

منشورات النادي الجراري رقم 69
طبع دار أبي رقراق - الرباط 2016

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

حضرات السيدات والسادة،

أود في البداية أن أعرب لكم عن سعادتني وجميع أعضاء النادي الجراري بالمشاركة في هذا اللقاء الأدبي الحافل الذي نقيمه بتعاون وتنسيق مع جمعية رباط الفتح التي ما فتئت برئاسة الأخ العزيز الأستاذ عبد الكريم بناني تنظم ندوات ثقافية هامة يشرف عليها بكل معرفة وحزم الصديق الأود الأستاذ الدكتور مصطفى الجوهري الذي تفضل -مشكوراً- بإعداد أعمال هذه الندوة للنشر.

أيها الإخوة والأخوات،

نلتئم اليوم في هذا الجمع المبارك لتكريم شاعر المغرب الكبير الأستاذ مولاي علي الصقلي. وعلى الرغم من أن تكريمات كثيرة سبقت وسبق بها النادي الجراري أن بايع شاعرنا الفذ أميراً للشعراء، فإننا بهذا اللقاء نقصد إلى ترسيم هذه الإمارة، مع الإشارة إلى مراحل إعلانها من قبل.

كان ذلك أول مرة في 22 دجنبر 2011 حين بعثت له بعض مؤلفاتي ، ورد علي بقصيدة بدأها بقوله :

أغرقتني يا ليت كلَّ غريق

مثلي وفي بحر لخير صديق

فأجبتة بعد تلقيها وبالضبط في 29 من الشهر نفسه بقصيدة مطلعها :

بل أنت من أغرقتني بثمالة

في بحر شعر رائق وأنيق

وجاء في آخر أبياتها :

فاهناً بما قد نلتّه وافخر به

واسعد فأنت أميره بحقيق

فكان أن رد عليّ في اليوم الموالي بقصيدة جعل عنوانها : "آسر

الخواطر" استهلها بهذا البيت :

لله درك من أديب شاعر

لِمَ لا أقول ومن أديب ناثر

ثم كان بعد ذلك وبالضبط في 17 مايو 2013 أن أقمنا له في النادي
جلسة تكريمية أنشدت فيها قصيدة بعنوان: "أمير الشعراء" هي التي أرى
ضرورة قراءتها في لقائنا اليوم. وفيها قلت:

اليومَ مجلسُنَا بهيَّيْ نَيِّـرُ والنادي في حفلٍ يتيه ويفخر
يهتزُّ من طربٍ وقد أشركتَه إبداعَ ضادٍ بالروائع يُنثَّر
فالنثر عندك مائدٌ في طرسه والشعر يزهو في حماك ويُزهر
قد صغتَ باللفظ الجميل مفاتناً وبذوقك الراقي المعاني تُهصَّر
الأغنيات بنظمها وبلحنها تسري بأفواهٍ تُسرُّ وتجهَّر
يكفيك أن لسان شعبٍ كاملٍ يُعلي النشيد لوطنه ويكبَّر
شعر الطفولة كنتَ سباقاً له فأتيتَ فيه بما يجدُّ يحييَّـر
هذي الأناشيدُ التي حبرتها للجيل أضحت في الدروس تُقرَّر
والمرح الشعري أنتَ مُفتِّحُ أبوابه للراغبين ومصـدر
في كل فن شدته لك موقعٌ ومكانةٌ ليست تُبارى تُشهر
صعبٌ عليَّ بأن أعددَ كلَّ ما قلَّمي على تعداده قد يقصَّر
أحييتَ للإبداع رونقه الذي قد كاد يُنسى أو بقصدٍ يُقبَّر
ليت الفرزدق والمعري ها هنا والبحترى مع ابن هاني يحضر
ليت الرصافي والنزار وحافظاً بل ليت شوقي بينهم يتبختر
بإمارةٍ من صحبه سيقَّت له رغم الذين بنقدهم قد جاهـروا
في محفلٍ بكنانةٍ نادوا بها والشعرُ في باقي المواطن يُنـزَّر

إِنِّي أرى الحلوي ومن في غربنا كانوا نجوماً للقوافي تُبهِرُ
 كم كان وُدِّي أن يكونوا بيننا ليشاهدوا حفل الوفاء ويحبِّروا
 في بهجةٍ فرحاً بما قد نلتَه يشدون جهراً بالمديح يُعطِّروا
 إذ أنت في شعراءِ عصرِكَ قائِد وزعيمهم وعميدهم وأكبرُ
 لو يحضرون اليوم ساقوا بيعةً لك يا أخي بإمارةٍ قد تُذكرُ
 لأنَّوًا جميعاً رافعين لواءَهـا يدعون أنك يا عليُّ الأجددُ
 هي بيعةٌ قد كنتُ قبلُ كتبتُها ودعوتُ في درسي لها وأبـرُ
 واليومَ فالنادي الجراي بحفله والسعدُ يغمره يُنادي يُظهِرُ
 أن الصقليَّ شاعرُ فردٌ لـه قدحٌ مُعلَى بالبدائع يسحـرُ
 في المغرب الأقصى ويعربُ كلُّهم في سائر الأوطان رسمك يُنشـرُ
 فاهناً -أخي- بالتاج رُصع لؤلؤاً ولأنتَ بالإجماع أنت الأشعرُ
 ولتقبلن مني تهاني مخلـص يرعى العهود لحبِّه ويُقـدِّرُ
 معها الدعاءُ بما تودُّ وصحةً والشعرُ بالألق البديع تُعبـرُ
 أهديكها مع دِرْع نادٍ قد أبـى إلا الحضور برمزه ويُشاطـرُ

ومرت أيام ليوافيني بقصيدة عنوانها: "أمير البيان" وهي مؤرخة في

13 دجنبر 2014، وفي مطلعها يقول:

أمير البيان بأعلى سرير

وهل للبيان سواك أمير

وفي أبياتها الأخيرة يتحدث عن هذه "الإمارة" التي يأبى إلا أن
نقتسمها مستحقين لها بعيداً عن أي غرور، فيقول:

حبيبي عباس يا هرمياً بأعلى الأعالي بدا للكثير
لمثلك أنت ومثلي أنما ولا فخر بالمكرمات جديراً
أميران نحن وما بيننا ونحن سويان أي كبير
ولست أغرُّ به لقباً وما إن به كنت يوماً غريب
وهل نستفز به غيرنا إذا كان للغير ليس يضير؟
أليس إذا الحق حصص في مُلِّم فما مثله من ظهير؟
وما قيل للشمس قط سناك وقد غمر الكون: ليس مُنير
وما إن تخرص قولاً كذا سوى حاقدٍ أو مُريبٍ حقيراً
ومن لم يجد بين قوم نصيراً فإن له الله جلَّ نصيراً
تباركت عباس من شاعر ومن ناثر بالبيان قريراً
ودام لك اسمك في كل نادٍ كأوفى رسول وخير سفير

تلكم -حضرات السيدات والسادة- هي قصة المناداة بمولاي علي
الصقلي أميراً للشعراء. فلنقف إجلالاً وتقديراً ومبايعة تأكيدية له بهذه
الإمارة.

وشكراً لكم وللاستاذة الفاضلة الدكتورة نجاته المريني والأستاذة الكرام
الدكاترة محمد احميدة ومحمد البوري ومصطفى الجوهرى الذين شاركوا
ببحوث قيمة فى هذا اللقاء ؛ وكذا للشعراء الأساتذة أحمد السوسى التنانى
ومحمد نجيد ومحمد نجيب لوباريس.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الرباط، فى 16 ربيع الثانى 1437هـ

الموافق 27 يناير 2016م

الشاعر الأديب الذي غلب عليه فقهه

ديوان شعر

العلامة الفقيه القاضي محمد بن أحمد حكم رحمه الله

1924-2001م

إعداد:

الزبير حكم

مطابع عكاظ - الرباط

1437هـ - 2016م

بسم الله الرحمن الرحيم

حين عَرَضَ عليّ الدبلوماسي الصديق الأستاذ الزبير حكم مرقونة ديوان والده العلامة المرحوم محمد بن أحمد حكم، لكتابة تقديم له، لفت نظري العنوان الذي اختاره له، وهو "الشاعر الأديب الذي غلب عليه فقهه". وإنه لعنوان قد يدفع إلى إثارة سؤال بقصد معرفة مدى إبداعية ما فيه، ومدى شاعرية صاحبه الذي اشتهر في مجال الفتيا والقضاء، وذاع صيته في العلوم العربية والإسلامية على العموم، والشرعية منها على الخصوص ؛ مع التبريز في سوح الخطابة والوعظ والإرشاد وسائر ميادين الدعوة الدينية.

وذلكم ما يجعل الحافز إلى إثارة هذا السؤال موضوعياً، كما قد يكون لمجرد التشكيك ؛ طالما أنه يتجاوز قضية الفقيه الشاعر، ليبحث على النظر في الإبداع من حيث هو في عمقه وحقيقته، عبّر ما يتطلب من مقومات تكوينه ومقاييس جودته.

إن الشعر ينبع من الذات، وينطلق من الوجدان وما ينصهر فيه من انفعالات، قد يكون مصدرها الشاعر نفسه بما تحتزن مشاعره وأحاسيسه من مسرات وأحزان، كما قد يكون الواقع الذي يعانیه، والمجتمع الذي يعيش فيه ويمارس طقوسه وأعرافه ويخضع لعاداته وتقاليده. وهي عوامل تؤثر في

تعبيره العام، كما تؤثر في تعبيره الخاص الذي مهما يكن له من الحرية والتطلع إلى ممارستها، فإنه يبقى منضبطاً بتلك المؤثرات ولو إلى حد.

*** **

ولعلنا بهذا نفهم كيف أن الشاعر المثقف، ولا سيما العالم الذي يكون في وضع فقيهننا الشاعر، يكون مجبراً على هذا الانضباط الذي لا يستطيع أن يتحرر منه، إلا حين يخلو إلى نفسه أو في مجلس حميمي، فيكشف عن مكنون عواطفه مباشرة، أو من خلال مساجلته لبعض خلانه، وما إليها مما هو من قبيل الإخوانيات.

على أن انضباط مثل هذا الشاعر لا يكون مقتصرًا فقط على الجانب السلوكي، وما يقتضي اتباعه من قيم لائقة بمكانته وسمعته في المجتمع، ولكنه يتعداه إلى التزام لغة قويمة وصور محتشمة وقوالب متداولة؛ مما يجعله أكثر تمسكاً بالنموذج القديم، بل يدفعه إلى اللجوء أحياناً إلى ما يساعد على إخفاء حقيقة مشاعره، وحتى على كبت رغبته في التجديد إن كان يود تجريبه. وهي الحالة التي نصادفها لدا كثير من أدبائنا المتأخرين. وهم في هذا على عكس أشياخ الملحون في كل عصر، ومن إليهم من مبدعي الشعر الشعبي في مختلف لغاته ولهجاته؛ إذ لا يجدون حرجاً في الإعراب عما يحسون، وخاصة في غرض الغزل الذي برعوا فيه، ليس فقط من حيث وصف المرأة وما يرتبط به من مضامين دالة على مكنونات الشاعر، ولكن

كذلك من حيث المعجم وما يتصل به من جوانب فنية، بما فيها الإيقاع، وقد يجددون في ذلك.

وعندي أن هذه ظاهرة قد تعين على فهم تألق الشاعر المدرسي حين يجرب حظه في التعبير العامي، وكأنه يتحرر من قيود ثقافته العالمة؛ إضافة إلى أن ساحة التلقي في هذه الحالة تكون أرحب وأوسع وأكثر قابلية لذلك التحرر. وإنه لتكفي الإشارة إلى فقهاء وعلماء اشتهروا في الملحون ونالوا أعلى درجات مشيخته، مع أنهم كانوا يبدعون في المعرب كذلك، أمثال التهامي المدغري، وادريس بن علي لحنش، والسلطان المولى عبد الحفيظ.

*** **

حين أتأمل ديوان الفقيه الشاعر محمد حكم من هذا المنظور، وفي ضوء المعطيات التي قدمها بنفسه في ترجمته، وكذا ما أعرفه شخصياً عنه من خلال معاشرتي الطويلة له، تتبين لي ملامح ومعالَم تكاد تتضمن الجواب عن السؤال الذي أثير في مستهل هذا التقديم. فهو -رحمه الله- خريج التعليم الذي تلقاه في مساجد مدينة الرباط على يد كبار علمائها، وما كان لهم من مجالس عامة وخاصة برز فيها تحصيله الواسع ونبوغه المتميز؛ مما أهله لاعتلاء كرسي التدريس، سواء في المساجد على الطريقة التقليدية كمسجد السنة، أو في بعض المؤسسات الحرة، كالمدرسة المعطوية

ومدارس محمد الخامس ؛ وكانت كلها مراكز للتعليم وللتوعية الوطنية التي كان له في نشرها حظ وافر.

وارتباطا بهذا الإطار العلمي الوطني، انخرط في خطة العدالة والتوثيق، وحمل أعباء الخطابة والوعظ والإرشاد، وأوذي بسببها لمواقفه النضالية ضد الاستعمار. وفي عهد الاستقلال عُين في منصب القضاء وتدرج في مراتبه، قاضياً للرباط وأحوازه قبل أن تضاف له سلا، ثم عضواً في الاستئناف الشرعي، فنائباً للوكيل العام، ثم مستشاراً بالمجلس الأعلى للقضاء الذي كان آخر محطاته الوظيفية. وحين أنشئت المجالس العلمية في 1981، عينه الملك المغفور له جلالة الحسن الثاني عضواً في المجلس العلمي الإقليمي لولاية الرباط وسلا والنواحي.

*** **

وإذا كانت هذه المعطيات تبرز جانب تكوينه العلمي ودوره الوطني، فإن لديه عناصر أخرى غالباً ما تهمل في التعريف به، ومنها اهتمامه منذ شبابه الأول بالمسرح الذي كان ازدهر في وقت مبكر بمدينة الرباط، والذي كان يشارك فيه بتمثيل أدوار معينة، وكذا بالمراجعة اللغوية والنحوية لنصوص ما كان يعرض من مسرحيات، وتصحيح نطق ممثلها حتى يؤديها بطريقة سليمة. ومنها كذلك التحاقه منذ هذه الفترة بالنادي الجراري الذي كان يلتئم في بيت شيخه -والذي رحمه الله- منذ 1930

بعد عصر كل جمعة. وكان يضم ثلة من تلاميذه ونخبة من أصدقائه العلماء، سواء منهم المقيمون في الرباط، أو الوافدون إليه من مختلف أنحاء المغرب وحتى من خارجه.

وفي هذا النادي تسنى لي أن أعرف الشاعر الحكمي عن قرب، وأنا ما أزال في سن الطفولة، وكنت مأخوذاً بأناقة هندامه، وبمذاكرته الهادئة، وبحديثه الحلو الذي غالباً ما كان يمزجه بنكات وطرائف. ثم توطدت هذه المعرفة مع توالي السنين، بعد أن اتسع نطاق النادي وانضم إليه بعض الأساتذة الجامعيين الشباب، وغيرهم من المثقفين المعتنين الذين كانوا يستمتعون بذكرياته ومناقشاته، ويبادلونه الشعور بالسعادة التي يجد فيها نفسه، كما يجدونها في أنفسهم كذلك، والتي كان يزيد في الإحساس بها حضور بعض رفاقه القدماء الذين ظلوا مواظبين على حضور جلساته الجمعية، أمثال الفقيه العلامة مصطفى بن المبارك، والأستاذ المربي الحاج عثمان جوريو، والأديب الشاعر محمد بن الراضي رحمهم الله جميعاً.

*** **

ثم كان أن زاد اتصالي به حين جمعنا المجلس العلمي، بعد أن عينني جلالة الملك الحسن الثاني أكرم الله مثواه عضواً فيه، خلفاً لوالدي الذي انتقل إلى عفو الله عام ثلاثة وثمانين، ثم عينني رئيساً له بعد وفاة العلامة المرحوم الشيخ محمد المكي الناصري سنة 1994. وفي هذه المرحلة

وقفت شخصياً -وعن قرب- على كثير من مزايا الرجل، مع صدق تفانيه في النهوض بمسؤولية العالم دون كَلَلٍ ولا ملل، محاضراً وواعظاً ومرشداً، ومجيباً على أسئلة المواطنين، ومكوناً للقيمين الدينيين؛ موازاة مع ما كان يمتع به في الجلسات من أحاديث أدبية ومستملحات وحكم شعرية ومقتطفات من إنتاجه هو.

ولم يكن ذلك مستغرباً منه، إذ معروف أن قرضه للشعر بدأ منذ وقت مبكر، وكان من أبرز اهتماماته وإن أهمل في الحديث عنه أو كاد، لما كان يسمه في الغالب من غنائية، خاصة بعد أن حمل أعباء علمية ودينية كانت تفرض عليه التحلي بالوقار الذي كان في نظر بعض فئات المجتمع يتعارض مع نظم قصائد في التغزل بالمرأة؛ وقد يضطر ككثير من الشعراء في مثل موقعه إلى تذكير الخطاب. ومع ذلك تمكن جامع الديوان الأستاذ الزبير من إيراد بعضها، مما كان نُشر في وقته، أو تسنى الاحتفاظ به ضمن أوراقه ولم يتعرض للضياع. وكان الشاعر نفسه قد ذكر لي أن بعض أشياخه ممن استُشيروا عند ترشيحه لقضاء الرباط عارض تعيينه للسبب نفسه.

وإنه ليكفي لإبراز هذا الجانب الإبداعي الخاص، أن أشير بتنويه إلى قصيدته "يا حبيبي" التي لحنها وغناها المطرب المرحوم أحمد البيضاوي عام 1950، وكان رئيس الجوق الملكي يومئذ. وهي التي يقول في أول أبياتها:

يا حبيباً أنا أهـواه

ومن قلبي قريب

وكانت قد نشرت في إبّانها بمجلة الإذاعة الوطنية.

*** **

وبالرجوع إلى الديوان، تتضح الأغراض التي كان يحرص عليها، بدءاً من الابتهالات إلى الإخوانيات كالمساجلات والتأبينات. وغالباً ما كان يمزج النص الشعري بكتابة نثرية في سياق الغرض نفسه. وقد أبى جامع الديوان إلا أن يضم إليه بعض الأراجيز وما إليها من قصائد في الحكمة والموعظة، وكذا نموذجاً من دروسه الدينية وما إليها مما يبدو غير ملائم لديوان شعر، ولكنه ارتأى حفظاً لتراث والده أن يلحقها به.

ولعلي في هذا المجال الأدبي أن ألفت النظر إلى البداية النقدية التي كانت للفقير المرحوم محمد حكم، على النحو الذي ورد في الديوان حول قصيدة "في الوادي" أو "أنشودة الحب" للعلامة المرحوم عبد العزيز بنعبد الله، وكانت قد نشرت بأحد أعداد مجلة "رسالة المغرب" عام 1949.

ولا أريد أن أغفل في هذا الجانب الأدبي وطنيات الفقير حكم ؛ ومن أهمها قصيدته بمناسبة عودة السلطان محمد بن يوسف -طيب الله ثراه- من المنفى، حاملاً بشرى الحرية والاستقلال، وفي مطلعها يقول:

ماذا يُحرك ساكني وعلى ما

ويَهيج مني صَبابة وغراما

وهي واردة في الديوان، من غير أن يشار إلى أنها أُلقيت يوم عيد العرش (18 نونبر 1955) على أمواج إذاعة المغرب. وإني لأذكر جيداً ذلك اللقاء الذي تم لي معه في استوديو البث مساء هذا اليوم - وكان بثاً مباشراً - والذي جمعني كذلك بالعلامة عبد الرحمن الدكالي والأستاذ عبد الرحمن السايح رحمهما الله. وكنت إذ ذاك تلميذا بقسم ما قبل البكالوريا في الثانوية اليوسفية، أجرب حظي في الكتابة التي كنت أنشر بعض محاولاتها في مجلة "هنا كل شيء". مهما يكن ففي هذه الجلسة الإذاعية كان كل واحد منا - نحن الأربعة - يلقي مشاركته التي كان تقديمها في إطار المباراة التي عقدت هذا العام على غرار الأعوام السابقة، وإن لم يعلن عن الفائزين فيها كما هي العادة. وكانت مشاركتي نثرية بعنوان "ذكرى العرش والانتصار"، وكذلك كانت كلمة المرحوم السايح. أما الفقيهان الدكالي وحكم فكانت لكل منهما قصيدة شعرية. وأذكر أن المرحوم الدكالي حين علم في تلك اللحظة بمساهمتي التي ابتهج لها، اقترح عليّ تغيير العنوان ليصبح كالتالي:

"الانتصار وذكرى العرش". وأذكر كذلك أن الذي كان في الاستوديو يشرف على البث وتنظيمه، هو الأستاذ الشاعر مولاي علي العلوي رحمه الله، وكانت وقعت له مشادة مع المرحوم السايح، بسبب إصرار هذا الأخير على أن يذكر باعتزاز في كلمته اسم الحزب الذي ينتمي إليه ؛ وهو ما اعترض عليه المشرف على هذا البث متشبثاً برأيه أن الإذاعة محايدة.

*** **

وبعد، فهذا هو شاعرنا الفقيه، أو فقيهننا الشاعر الذي يتجاذبه قطب الفقه والعلوم العربية والإسلامية التي برز فيها، وقطب الشعر الذي أبدعه بتمكن وأصالة، وبعدوبة وصفاء ؛ وإن كان ما جُمع في الديوان لا يكفي لإصدار رأي نقدي حاسم، إذ هو لا يضم إلا ما كُتب له ألا يضيع من إنتاجه. ومع ذلك، وعلى الرغم من أن جامعه قد اهتدى إلى اختيار عنوان له هو "الشاعر الأديب الذي غلب عليه فقهه"، فقد يرى غيره عنواناً آخر هو: "الفقيه الذي غلب عليه أدبه" ؛ وكلاهما دالٌّ ومعبرٌ وصائب.

وإني إذ أعرب عن فائق سعادتي بكتابة تقديم لهذا الديوان، لأود أن أعبر عن صادق تهنئتي للنجل الكريم الدبلوماسي القدير الأستاذ الزبير حكم، وأن أنوه بالجهد الكبير الذي بذله في لم شتات هذا المجموع الشعري الذي طالما انتظره وتطلع إليه محبو الفقيه محمد حكم وعاشقو

شعره ؛ مع الدعاء له وإخوته الأعزاء أن يواصلوا نفض الغبار عن تراث والدهم، تغمده الله بواسع رحمته وجزيل مغفرته، ونفعهم برضاه ورضا الوالدة حفظها الله وأدام عليها رداء الصحة والعافية.

ومن الله العون والتوفيق.

الرباط، في 28 ربيع الثاني 1437هـ

الموافق 8 فبراير 2016م

مع شعراء موسوعة الملحون
في دواوينهم

موسوعة الملحون

ديوان

الشيخ ادريس بن علي السناني

”لحنش“

جمع وإعداد:

لجنة الملحون

التابعة لأكاديمية المملكة المغربية

إشراف وتقديم:

عباس الجراري

عضو أكاديمية المملكة المغربية

منشورات الأكاديمية

طبع المعارف الجديدة-الرباط

1433هـ=2012م

بسم الله الرحمن الرحيم

يعتبر الحاج ادريس بن علي السناني المدعو "لحنش" أحد كبار أشياخ الملحون، ومن أبرز أعلام الفكر والأدب في المغرب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، إذ كان عالماً مؤلفاً وكاتباً بارعاً وشاعراً مبدعاً في المغرب والملحون.

وهو والد الفقيه المدرس المؤلف محمد الراضي السناني¹، وأخ شاعر الملحون قدور لحنش الذي قال عنه محمد الفاسي إن "جل كلامه في الهزل والهجاء. له (الطجين) و(التطوية) و(اللوطية)، وقصيدة هزلية في مسخ قصيدة أخيه (غيثة). وذكر نقلاً عن شيخ الملحون مولاي المهدي "أن

1- توفي الراضي يوم الخميس 24 صفر بمدينة أزموور عام 1385هـ الموافق 24 يونيو 1965م. انظر ترجمته في مصادر منها:

1- "التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين من 1900 إلى 1972" لعبد الله الجراري (والدنا رحمه

الله) - منشورات النادي الجرجاري رقم 1 - مكتبة المعارف - الرباط - الطبعة الأولى 1985

2- "إسعاف الإخوان الراغبين بتراجم ثلة من علماء المغرب المعاصر" لمحمد بن الفاطمي السلمي الشهير بابن الحاج. ص: 108-113 (الطبعة الأولى 1412هـ=1992م - مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء.

3- معلمة المغرب. - مجلد 15 ص: 5134 (الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر - مطابع سلا، 1423هـ=2002م).

(اللوطية) لأخيه الحاج ادريس وإنما نسبها لأخيه حياء¹، مع أنه ذكر فيها اسمه إذ قال: قال الحاج ادريس بن علي راه لفظه محسون".

*** **

وللمكانة المتميزة التي كانت للحاج ادريس بين معاصريه في مختلف المجالات العلمية والأدبية، فقد أوردت ترجمته كثير من المصادر سنشير إليها في أماكنها بعد، وإن بدون ترتيب تاريخي لما بينها من تفاوت في المعلومات؛ وكنت قد عرفت به في كتاب "القصيدة"²:

1- ففي "الإعلام بمن حل بمراكش وأغامت من الأعلام"³ للعباس ابن ابراهيم، ورد في مستهل ترجمة الشاعر أنه "ادريس ابن المقرئ علي بن علي (مرتين) ابن الغالي بن المهدي بن محمد (فتحا) ابن الطاهر بن الراضي المالكي البكري السناني المدعو لحنش"⁴، ونقل ما بدأ به السناني رسالته المسماة "الشهاب الكاوي لأهل التمشدق والدعاوي" الواقعة في ثلاثة أوراق أنه: "ادريس ابن الفقيه علي بن علي بن الغالي المغربي المالكي البكري السناني نسباً الفاسي داراً ومنشأً العماري مذهباً خديم الطائفة

1- معلمة الملحون. -ج. 2، ق2 تراجم شعراء الملحون ص: 170 (منشورات أكاديمية المملكة المغربية بدون تاريخ).

2- ص: 656-657 (الطبعة الأولى - مطبعة الأمنية - الرباط 1970).

3- الجزء الثالث ص: 42-47 (الطبعة الثانية - المطبعة الملكية - الرباط 1975). ولعلها على ما يبدو أقدم ترجمة له.

4- ص: 42

الدرقاوية¹". وساق ما ذكر له مولاي أحمد بن المامون البلغيثي - وكان صديقاً للسناني وله معه إخوانيات² - أنه "كان فقيراً لا يملك شيئاً وحرفته الخرازة"، وأنه "دخل مراکش في أوائل دولة المولى عبد العزيز، وكان عند الشريف المولى عبد الملك لا يتركه يذهب عند غيره"³.

ويبدو أن السناني كان له اتصال بالسلطان الحسن الأول الذي قال عنه ابن ابراهيم إنه كان معجباً بملحونه، وإنه كافأه مرة على قصيدة ساعدته على حل مشكل خاص كان يواجهه، وإنه "نفذ له ... مائة مثقال مفردة صلة له على إنشاء قصيدة بتاريخ 30 صفر عام 1303"⁴. ولعل القصيدة المعنية هي التي ساق ابن ابراهيم حربتها التي يقول فيها السناني:

قولوا لغزالي التايها روفي روفي

لاش ذا الجفا عطفي على لخليـل

1- ص: 43

2- سأشير إلى بعضها في هذه المقدمة. وقد أوردها البلغيثي في ديوانه المسمى "تبسم ثغور الأشعار بتنسم عبير الأفكار" الذي حققه امحمد العلمي ونال به -تحت إشرافي- درجة دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها بجامعة محمد بن عبد الله في فاس عام 1402هـ-1982م. وقد كتب المحقق عن السناني ترجمة قصيرة في هامش رقم 3 من ص: 70 من القسم الأول من الديوان. والرسالة ما زالت مرقونة في ثلاثة أجزاء بعد أن كان عازماً على طبعها لولا أن المنية وافته رحمة الله عليه. توجد ترجمة البلغيثي في مصادر كثيرة لعل أهمها في كتابه: "تشنيف الأسماع" حيث أورد ولده عبد الملك تعريفاً وافياً به (انظر كتاب "تشنيف الأسماع في أسماء الجماع وما يلائمه من مستلذ السماع"، ج. 1، ص: 1-52 - الطبعة الأولى - المطبعة الجديدة - الطالعة فاس 1353هـ).

3- ص: 42

4- ص: 47

مالك على الرسام غافلا

أمشوم لبنات لغزال فضيلا

وكان قدم لهذا البيت بما يلي: "لما وقع لجاج بين العلامة مولاي الكامل المراني وزوجته الشريفة المصونة السيدة فضيلة أخت المولى الحسن ذهبت عند أخيها وامتنعت من الرجوع عند زوجها بعد أن راودها بجميع أنواع الملاحظات، وبقيت ناشزاً حولاً كاملاً، فعمل المترجم قصيدة من الملحون على لسان زوجها يستعطفها بذلك. فبمجرد ما وصلتها وعرفت ما فيها رجعت عند زوجها وطاب خاطرها عنه".

2- وفي "إسعاف الإخوان" لابن الحاج في مستهل ترجمة ولد الشاعر محمد الراضي¹ أن "السناني نسبة إلى أولاد سنان أحد بطون قبيلة بني مالك وسفيان". وزاد: "قدم جد المترجم سيدي علي من قبيلته بالغرب بإزاء ضريح العارف بالله الشهير مولاي بوسلهام، وذلك في عهد السلطان العلوي مولاي عبد الرحمن بن هشام".

3- وفي مقال لعبد القادر زمامة عن الشاعر ادريس السناني الحنش² "أن كلمة الحنش ليست لقباً شخصياً للشاعر ولا لآبائه، وإنما الأمر يتعلق باسم - الدّوار- الذي كانت تسكنه أسرة الشاعر قبل دخولها وسكنها

1- ص: 108 وقد أشير إليه قبل.

2- مجلة تطوان - العدد الحادي عشر - السنة 1971 ص: 123-136

بفاس"¹. وزاد بأن "دوار الحنش يوجد بقبيلة بني مالك العربية المستوطنة بالغرب، فكان ينبغي على هذا أن تزداد في الكلمة ياء النسبة لأن الأمر يتعلق بنسبة أسرة الشاعر إلى هذا الدوار المعروف باسم دوار الحنش. والذي انتقل من دوار الحنش إلى فاس واستوطنها هو علي والد الشاعر، وسكن داراً متواضعة معروفة في حارة الشمس العليا بحي الطالعة الكبرى، على مقربة من الدار الكبرى التي كان يسكنها في عصر بني مرين الوزير الأديب لسان الدين ابن الخطيب. وكان والد الشاعر فقيراً وكان من حفاظ القرآن الكريم. لهذا أخذ مكتباً من مكاتب تعليم الصبيان، وهو مكتب يسمى مكتب فران كويشة، وأخذ يؤدي عمله وينال التقدير والاحترام، ويعرف بين الناس باسم سي علي الحنش".

وقد ذكر زمامة في مقاله أن السناني كان إلى جانب اشتغاله بالخرافة لكسب لقمة العيش "شغوفاً بمجالس العلم ومحافل الذكر في الزوايا والمساجد، ومصاحبة المنشدين والذكارة وأشياخ الشعر الملحون. وكان أثناء مزاولته لعمله في الخرافة بفندق الشماعين الشهير يرفع عقيرته بإنشاد الأزجال والبراول والأمداح النبوية والقصائد الصوفية التي سمعها وحفظها فصارت سلوته في عمله وأنسه في وحدته"².

1- ص: 124

2- ص: 125

وكان قال عنه في مستهل المقال إنه "عند شعراء الملحون قمة، وعند الذكارة إسوة، وعند المتصوفة قدوة. ولا تخلو كناشة من كناشات معاصريه من إلمام بهذا الشاعر الذي تجاذبته في حياته عدة اتجاهات وسبل، وأسهم فيها كلها بحظ وافر من سلوكه الشخصي وإنتاجه الأدبي"¹. وقال عنه كذلك إنه "اشتهر عند أشياخ الملحون بأذكاره العيساوية إلى حد لقب بـ (ذكار عيساوة)، وهو اللقب "الذي جعل السناني يضرب صفحاً عن الانتماء إلى العلم، أو الظهور بمظهر العلماء، بل إنه صار يحرص كل الحرص على أن يكون سمعة وصيتاً في طبقة أخرى من ذوي الأريحية والوجاهة والجاه من أمراء وشرفاء وبعض العلماء والشعراء وذوي السلطة والنفوذ. ووسيلته دائماً هي شعره وما يملك من قدرة على الحديث الممتع والسمر المؤنس. وبذلك لا يعد في العوام ولا يوصف بكونه ذكار عيساوة فقط بل هو الشاعر الأديب"².

ومع ذلك فقد مدح غير عيساوة، كأبي العباس السبتي وسليمان الجزولي وسيدي بوسرغين، وهنا السلطان الحسن الأول بشفائه من مرض³. وفي ختام المقال ذكر زمامة أن الشاعر "ودع ... هذه الحياة - كما يقول ولده الشيخ محمد الراضي - بعدما حج وجاهد وانقطع للذكر والعبادة

1- ص: 123

2- ص: 126

3- في قصيدته "راحة السلطان الحسن الأول". وهي مدائح واردة كلها في هذا الديوان.

... بمسجد سيدي يعلى بالطالعة الكبرى حيث كان يسرد كتب الوعظ
ويجتمع حوله أصدقاؤه ورفقاؤه، وأن وفاته كانت سنة 1319هـ ومثواه
خارج باب عجسة قبالة ضريح سيدي محمد بن الحسن رحمه الله¹.

4- وفي "معجم المطبوعات المغربية" وصفه ادريس بن الماحي الإدريسي
القيطوني الحسنني بأنه "الفقيه الأديب الكبير الشاعر المكثر المجيد الحاج
ادريس بن علي السناني الهلالي الفاسي. كان أديباً شهيراً وشاعراً مجيداً
يجيد الشعر العربي والشعر الشعبي باللهجة الشعبية الفاسية ويجيد في
النوعين"².

وذكر له زيادة على ديوان "الروض الفائح بأزهار النسيب
والمدائح" - وسأعود إليه -: "المقامة المغنية عن المدامة المسماة بروضة
المنادمة والإيناس في لطف محاسن مدينة فاس"³ وسأعود إليها كذلك.

5- وفي "التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين" - المشار إليه
قبل - قال عنه والدنا رحمه الله إنه "من عليّة أدباء القرن وشعرائه بالمغرب
الذين لهم مشاركة عامة واطلاع في شتى العلوم مع بدهاة وإجادة"⁴.

1- ص: 135

2- ص: 162 - مطابع سلا - تابريكت - 1988، بتقديم عبد الله گنون.

3- وهي مطبوعة على الحجر بفاص في ثمان صفحات، ونشرها محمد السولامي في كتابه: "فن المقامة بالمغرب في
العصر العلوي"، ص: 289-299 (منشورات عكاظ 1992). وهي رسالة نال بها -تحت إشرافي- درجة
دبلوم الدراسات العليا من كلية آداب جامعة محمد الخامس بالرباط عام 1986.

4- ص: 284-285

وذكر من مصنفاته ديوانه "الروض الفائح" و"ديوان شعر في الملحون يحفظ جله أهل هذا الفن" و"رسالة التذكير ببعض ما يجب على الفقير" و"تأنيس المسجونين وتنفيس المحزونين" و"نزهة الأعيان وتبصرة الإخوان في تبیین ما بني عليه مقام الإحسان" و"تأليف في الصلاة على النبي صلوات الله عليه على نسق دلائل الخيرات".

6- في "دليل مؤرخ المغرب الأقصى" ذكر عبد السلام بن سودة ديوانه الشعري "الروض الفائح بأزهار النسيب والمدائح"، وأنه توفي "سنة 1319 تسع عشرة وثلاثمائة وألف موافق سنة 1901"، وأن هذا الديوان يقع في مجلد يوجد بخزانتنا الأحمديّة¹.

7- وفي كتابه الثاني "إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع"² ذكر عبد السلام بن سودة أنه "في زوال يوم السبت خامس عشر جمادى الأولى توفي ادريس بن علي بن الغالي بن المهدي السناني المالكي البكري"، وأنه "دفن خارج باب المحروق".

8- ووردت ترجمته في "معلمة المغرب"³ بقلم أحمد متفكر الذي ذكر فيها أن وفاته بالتاريخ الميلادي كانت في 31 غشت 1901م.

1- ج. 2، ص: 402 رقم 1818 (الطبعة الثانية - دار الكتاب بالدار البيضاء 1965م).

2- نشر ضمن "موسوعة أعلام المغرب" تنسيق وتحقيق محمد حجي -ج. 8 من 1301هـ إلى 1360هـ مع وفيات عام تسعة عشر وثلاثمائة وألف (الطبعة الأولى - دار الغرب الإسلامي -بيروت 1417هـ=1996م).

3- مجلد 11 ص: 3621

9- وذكره عمر رضا كحالة في "معجم المؤلفين: تراجم مصنفي الكتب العربية"¹، وأشار إلى ديوانه "الروض الفائح"، اعتماداً على "دليل مؤرخ المغرب الأقصى" المشار إليه قبل.

10- وفي مسامرة "تاريخ الشعر والشعراء بفاس"² اكتفى أحمد النميشي بذكر وفاة السناني وبيتين من الشعر هما:

شرحت سعاد صدورنا بمزار

فبدت محاسنها بلا أستار

وفت بما وعدت ووافت تجتلي

والليل بحر فائض الزخار

11- وعلى هذا النحو ساق عبد الله كَنون في "أحاديث عن الأدب المغربي الحديث"³ أبياتاً للسناني في وصف روض بدأها بقوله:

روض يروق الناظرين بهيج

سيان فيه الزهر والزليج

وعلق عليها بأن "هذه الأبيات مما تلوح عليه آثار المغربية، فإن لفظ الزليج من الأوضاع التي لا تستعمل إلا في المغرب... وهي من الشعر الرائق الذي يطابق الوصف فيه الموصوف حسناً وجمالاً"

1- ج. 13، ص: 371 طبع بيروت.

2- ص: 94 رقم 147 (مطبعة أندري - فاس 1343هـ=1924م).

3- ص: 29-30 -مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية - دار الرائد للطباعة -القاهرة 1964

12- وفي "معلمة الملحون"¹ قال محمد الفاسي عن ادريس بن علي إنه "من أكبر شعراء فاس، شعره رقيق وقد اشتهر في سائر أطراف المغرب"، وإنه كان "ينسج على منوال السي التهامي المدغري". وذكر له حربات بعض قصائده. كما أشار إلى أنه "كان يقتصر في بعض قصائده على قوله (ابن علي) فتلتبس بقصائد ابن علي الشريف ولد ارزين كما وقع بقصيدته (الساقي) التي نسبها لابن علي الشريف صاحب كتاب (نفع الأزهار) ووصف الأنوار وأصوات الأطيوار وأنغام الأوتار، وهما عبد الرحمن السقال ومحمد بخوشة" ؛ وقد أوردناها في هذا الديوان، وهي التي حربتها:

كب أساقي كاس الرحيق العتيق وراَدَف للعشيق هناك اصلاحو
بوجود اغزالي صابغ الشفر عمّر كاس الراح²

13- مختارات من شعر الملحون المغربي

Anthologie de la poésie du Melhoun marocain

حيث أورد له فؤاد جسوس نبذة قصيرة عن حياته، إلى جانب نخبة من قصائده مع ترجمتها إلى الفرنسية³.

1- الجزء الثاني -القسم الثاني: تراجم شعراء الملحون ص: 173-176

2- وكان قد أوردتها مؤلفا "نفع الأزهار" منسوبة لولد ارزين ص: 82-84 (مطبعة المهديّة -تطوان 1934).

3- pp 176-215 Presses de Publiday-Multidia Casablanca -Octobre 2008

14- ولعلنا في سياق هذه النماذج من شعر السناني أن نستعرض بعض ما أورد له ولده الفقيه الرضي في كتابه "الشذرات والتقاط الفوائد وغرر العوائد"¹. ففي الشذرة 108² من الجزء الأول ذكر له ثلاثة أبيات في طلب العلم. وفي الشذرة 440 من الجزء الثاني ساق له مقطوعة من رقائق أشعاره المزهدة في الدنيا، أولها:³

ألا ليس من شيء أضر على العبد

من الميل للدنيا فكن من ذوي الرشد

وأورد له في الشذرة 133 من الجزء نفسه⁴ أبياتا ملحونة ساقها على هذا النحو، منقولة من كناشه بخط غيره بعد أن قال: "من كلام سيدنا الوالد رحمه الله ورضي عنه على الأسلوب المعروف عندهم بالملحون مصدراً بكلمات نثرية ما نصه: ولقد قالت لي أمي الهاشمية يوماً وقد وجدتها تفرح بابنتي كنزة: ألا تفرح بهذه البنت؟ فورد علي هذا العروبي:

فَرَحِي بِالكَنْزِ خَيْرَ لِي مِنْ كَنْزَا

ما دمت تشف صورتني فبلاد الفرق

1- جزآن - مطبعة النجاح - بوشنتوف - الدار البيضاء بدون تاريخ.

2- ص: 28

3- ص: 39

4- ص: 142-143. (وانظر قول الولد معقياً على كلمة "ودأول" الواردة في البيت الثاني أنها جاءت كذلك بخط غير والده، ولعله من تحريفه، والأصل: "ودَيَال").

وذاولُ الغير في عين همـزا
وتحقق لي الحق والوهم ثمزق
فرح بها نـشاهد فرح بالحق
وفي الشذرة نفسها ذكر من كلام والده الملحون، كما ورد في كنانيش
من خط غيره:

بشرى لي وهنيا الحبيب دعاني لساحتُ جادَ عليا بيا
وكرمني برضاه
وسقاني حُميا وخلعت اعذارى فحضرتُ وتقوى ما بيا
مهما شفت بهاه
زال الوهم عليّ وتلاشى ورُميت حُلت وعرفت اللي فيا
والحمد لله

ثم عقب الولد على ذلك بقوله: "ولا يخفى أن كلا من هاتين القطعتين مفصح بأن صاحبهما من الواصلين، أو تقول من العارفين. وكثيراً ما يشير إلى ذلك في أنظامه الملحونة".

ويضيف إليه الشذرة 155 من الجزء الثاني¹ حيث يقول: "فتحت يوماً ديوان سيدنا الوالد المسمى بالروض الفائح بأزهار النسيب والمدائح، فوقع بصري على أبيات من أعلى طبقات البلاغة والبديع، وكأني ما

1- ص: 163-164

رأيتها قبل، مع أن الكتاب المذكور قرأته مراراً بتمامه ؛ وكان تلك الأبيات أحاطت بما يبرزه الله تعالى في ذلك الفضل، يختص من يشاء بدقائق العلوم والفضل. فلهذا أحببت أن أسوقها في تأليفنا هذا ليسهل الوقوف عليها، ويعرف ما لناظمها من انطلاق سجيته وصفاء فكرته". وأول هذه الأبيات قوله :

هذا الربيع بما تهوى النفوس أتى

يرصع الأرض بالياقوت والدرر

*** **

تلكم هي شخصية الحاج ادريس بن علي الذي برز في مجال العلم بعد أن نال منه حظاً وافراً بما تلقاه على يد علماء عصره ؛ وكذا مجال الزهد والتصوف بعد أن تراجع عما كان ألفه، وغدا ملازماً للزوايا ومجالس الوعظ والذكر. وفيه ألف "رسالة التذكير ببعض ما يجب على الفقير" و"تأسيس المسجونين وتنقيس المحزونين" و"نزهة الأعيان وتبصرة الإخوان في تبیین ما بني عليه مقام الإحسان" و"تأليف في الصلاة على النبي صلوات الله عليه" ورسالة "الشهاب الكاوي لأهل التمشدق والدعاوي"¹.

إلا أن الميدان الذي سيبرز فيه هو الأدب بصنفيه المعرب والملحون :

1- في ثلاثة أوراق.

أولاً: المعرب بنثره وشعره.

ففي النثر تذكر له "المقامة المغنية عن المدامة المسماة بروض المنادمة والإيناس في لطف محاسن مدينة فاس"¹ طعمها بما يناسب من أشعاره. وقد بدأها على هذا النحو الدال على براعة أسلوبه البديع: "ندبني ذات يوم داعيةً الارتياح، لأنتهز على وادي الجواهر فرصة الاصطباح، فوشحت بوشاح التخلي وامتطيت سهوة التسلي. ثم برزتُ بَعِيدَ الفجر—وابنُ دَايَةَ لم يفارق الوكر— بين خَلَيْنٍ من ذوي الأحساب العاطرة، والأنساب الطاهرة، ينتميان إلى دُوَابَةِ هاشم، ويقتديان بَعْدِيَّ وحاتم، قد توشحا بأردية المَجَادة، وتبجحوا في أندية السيادة، يُعَامِلَانِ بالإخلاص، ولا يعملان بمذهب الاعتياص. وُدُّهُمَا أَصْفَى من ماءِ المَفَاصِلِ للقاطع والواصل. كلاهما من العُدول، وما لهما عن ميدان الندامة عُدول.

ولمَّا امتازا عن أبناء الجنس بأسنى المراتب، امتيازَ الشمس والبدر عن الكواكب، اتخذتهما بطانة أرجع إليها في المهمات، وجُنَانَةً أتقي بها صدمة الأزمات.

خَلَّدَ اللهُ عزهما الزَّامخ، وأبَدَ شرفهما الشامخ، فضرَبْنَا بحاشية الوادي الخِباء، بنية إحياء رسوم الصِّبَا، وحلَّلْنَا—إذ حلَّلْنَا بها— أزيمة النفوس، وطفقنا نقتض أبقار الأفكار وتُقَبَّلُ شفاه الكؤوس. فترانا ببحبوحة

1- فن المقامة بالمغرب في العصر العلوي لمحمد السلامي ص: 289-299 (مصدر سبقته الإشارة إليه).

هَاتِيكَ التَّلْعَةَ عَلَى صُورَةِ الهَقَّةِ، بوسطنا طَبْلَةٌ تشبه القمر، وتروق ببهجتها
النظر، تقف عندها الأبصار، كأن كؤوسها كواكب وهي سماءٌ نُضَارٌ، قد
نقش الصانعُ على وجهها الناصع :

اشرب عليَّ كؤوساً
واطرب لترفع بُوسا
فالدهر أصبح طَلْقاً
فانظر إليه عَروسا
وانفقْ يواقيت وقت
بين النَّدَامَى جُلوسا
والكأسُ ثَملاً فَتَحَلَّى
حكّت لدينا شموسا
متى تجلّت بلطفٍ
كالروح تحيي نفوسا

وأما الشعر فنمطان :

أولاً: المعرب، ويذكر له فيه ديوان "الروض الفائح بأزهار النسيب
والمدائح"¹، وقد فرغ من جمعه سنة 1316هـ وعدد صفحاته ثمان عشرة
وأربعمائة، تضم إحدى عشرة قصيدة مرتبة على حروف المعجم. وهي

1- مخطوطة بخزانة الرباط العامة رقم ك 1678 وهو بخط ولده محمد الرضي السناني.

تعكس مختلف المراحل السلوكية التي اجتازها في حياته. فهو إذا كان قال
متغزلاً¹:

يا رب سائلة الأطراف نائمة
مليحة من ذوات المجد والحسب
غزالة قد غزا الأكباد ناظرها
بصارم سل قصد الفتك والعطب

...

جاءت تميل بكاس الراح قائلة
أجب بكأسك يا إدريس واقترب
فأطربت بلذيذ اللفظ واحتجبت
فغاب عقلي لما قد نلت من طرب
فهو قد قال في مدح آل البيت²:
بربك هل تحت ظل السماء
أناس كأنجمها في السناء
وأبهى من الشمس وقت الضحى
ومن دارة البدر حال الضياء

1- ص: 48

2- ص: 10

سوى آل فاطمة إذ لهم
لباب المعالي وكنهه العلاء
فمن مثلهم في الورى منصباً
أما قدرهم والسما ذو استواء
وإن شئت قل قدرهم فوقها
تكن قد أصبت مرامي السماء
وقال كذلك بعد أن تراجع عما كان فيه :
نذير الشيب للتعوى دعاني
وعن غشيان مجلسكم ثناني
أيجمل بالبيب يضيع وقتنا
بغير مزية والمرء فان
تسير به الليالي كل آن
وسير زمانه سير السواني
فَمَنْ وَلَّى الشَّبابَ وسار عنه
أحق الناس ضئلاً بالزمان
فدعني من ملامك شبَّ عمرو
عن الطوق المناسب للتواني
سأفري ما يعوق من الملاهي
وإلا فلست أدعى بالسناني

ومن إخوانياته مع البلغيثي قوله ملغزاً في (باب)¹:

أخي ما اسم تعدد في السماء
كذا في الأرض عُدُّ باعتناء
وفي آي الكتاب أتى مبيناً
وفي كتب الشريعة ذو اجتلاء
يضاف إذا ذكرناه لأمر
خصوصاً في الصباح وفي المساء
له التحريك والتسكين دأب
ولا ينفك دوماً ذا بناء
ومن عجب قراءته صحيحاً
من الحرف الأخير والابتداء
فيأتي سالماً من غير نقص
على الوجهين من غير الخفاء
إذا صحفت أوله تجده
أتى المولى على حال ارعواء
وإن صحفت حرف الختم منه
فجمع حاصل بعد العشاء

1- انظره مع الجواب في الديوان ص: 70-71، وفي "الابتهاج" ج. 1، ص: 140-141. وسيرد ذكره بعد.

مَسَّمَاهُ عَلَيْنَا فَرَضَ عَيْنِ
بِهِ يَنْجُو الْجَمِيعُ مِنَ الْبَلَاءِ
وَمَا لِلنَّاسِ عَنْهُ مِنْ مَحِيصٍ
وَكُلَّ الْخَلْقِ فِيهِ عَلَى السَّوَاءِ
بِهِ اتَّصَفَ الْإِمَامُ أَبُو الْمَعَالِي
عَلِيٌّ صَهْرُ خَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ
عَلَيْهِ وَمَنْ لَهُ آلاً وَصَحْباً
صَلَاةَ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ انْتِهَاءِ
فَأَجَابَهُ الْبَلْغِيثِيُّ :

أَخَا الْأَدَابِ لِعَزْكَ غَيْرِ نَائِي
عَلَى خَلِّ يَجِيبُكَ بِاعْتِنَاءِ
قَصَدْتَ إِلَيَّ تَرْجُونِي لِفَتْحِ
لِهَذَا الْبَابِ مِنْ دُونَ ارْتِيَاءِ
فَدُونُكَ قَدْ فَتَحْتُ كَمَا تُرْجَى
فَبَابِ الْقَوْلِ مَتَسَعِ الْفَنَاءِ

هذا إضافة إلى ما أورد له ابنه محمد الرضي في "الشذرات" من نماذج شعرية مختارة، وإضافة كذلك إلى الإخوانيات التي للشاعر مع بعض معاصريه، ولا سيما مولاي أحمد بن المامون البلغيثي، من تشطيرات

وتخميسات وألغاز ومساجلات مختلفة¹. وله كذلك قصيدة قرظ بها كتاب
"الابتهاج بنور السراج"²، وهو شرح للبلغيثي على منظومة العربي المساري.
وأول القصيدة قول السناني:

شرحت سعاد صدورنا بمزار

فبدت محاسنها بلا أستار³

ثانياً: الملحون: ويضم هذا الديوان مجموع ما أمكن الوصول إليه من
القصائد التي أنشأها الشاعر، وعددها اثنتان ومائة، إحداها مبتورة، والتي
يمكن النظر إليها من خلال الملاحظات الآتية:

1- فبالنسبة لحجمها - وهو واضح في الديوان - فإنها متوسطة
الطول، باستثناء ثلاثة، هي: "اللوطية"، وتليها "الورشان"2، ثم
"التطوانية"؛ في حين أن أقصرها هي بعض "التصليات" وخاصة "وصاية".
2- وبالنسبة للموضوعات فهي متنوعة، وتغلب عليها "العشاقيات"
و"العيساويات"، وبعد ذلك "التصليات" و"مدائح آل البيت"؛ تليها قصائد
"المرسول" و"الورشان". وتلفت النظر في هذا الجانب المتصل بالأغراض
قصيدتان.

1- تنظر في ديوان "الروض الفائح" للسناني، وكذا في ديوان البلغيثي المشار إليه قبل: "تبسم ثغور الأشعار
بتنسيم عبير الأفكار".

2- مطبعة محمد أفندي مصطفى - مصر 1319

3- الابتهاج ص: 228، وكذا ديوان "الروض الفائح" ص: 225-229

أ- "التطوانية"، وحربتها:

ما اذرى نَفْدِيو الثار

ويَفْدي لي لنا ربي امع النصارى

نسعاو النصر والفتح امن الله بالمفضل وانصارو

وفيهما يتحدث عن الحرب التي دارت رحاها بين المغرب وإسبانيا عام 1276هـ الموافق 1859م¹، معللاً لما وقع، ومنبها للغافلين، مع الدعوة للجهد والدعاء بالنصر.

ب- "اللوطية" وحربتها:

أيا من هو لواط فارق الزعكة واسمع ليأ

وانصحتك من جانب المحبة روم الطبون

يا من هو لواط توب

وقد ترددت لجنة الموسوعة في إدراجها بالديوان، لما فيها من تهتك وإباحية وفحش، ولكننا رأينا في نهاية الأمر أن موضوعية جمعه تحتم عدم إهمالها، باعتبارها دالة على مرحلة من حياة الشاعر -وفق ما سبقت الإشارة إلى ذلك- وإن ذهب في القسم الأخير من القصيدة إلى أنها من باب

1- انظر كتابنا "النضال في الشعر العربي بالمغرب" ص: 32-46 والمصادر المذكورة (الطبعة الثانية - دار الثقافة -الدار البيضاء 1978).

التفكه والمزاح والترويح عن النفس. ثم إنه كان أعرب عن عفته في بعض شعره المعرب على نحو قوله¹:

جفاني الذي كنت أحسبه
يراعي العهود بحفظ الشروط
وأصبح غيري له صاحباً
وأضحى يراني بعين السقوط
وما لي ذنب سوى أنني
لعمرك ذو عفة لا ألوط
وقوله يستنكر ظاهرة اللواط²:

تأملت بالفكر السليم كما ترى
فلم أر شخصاً عن هدى الحق مدبراً
كمثل الذي يأتي الذكور من الورى
ويولج عضو النسل في مخرج الخرا
ألا فالعنوا من لا يزال بخبثه
على مذهب الفساق يزرع من ورا

1- الديوان ص: 46

2- نفسه ص: 44

وكان قد ذكر انتباهه من غفلاته في "نزهة الأعيان وتبصرة الإخوان" وفق ما نقل عباس بن ابراهيم من "أنه رأى في المنام الفقيه سيدي أحمد ابن الفقيه أبي عبد الله السجدالي بعد موته، وكان يسمع منه (حلية) أبي نعيم بجامع القرويين فقال له: ما فعل الله بك؟ مرتين، فقال له في أذنه بصوت رقيق: لم يواخذني ربي بغفلاتي. ثم طلب منه الدعاء، فوضع كفه على صدره وقرأ شيئاً فانتبه... ثم ذكر أنه أخذ الطريق عن شيخه... سيدي محمد بن عبد الواحد الكتاني... وأنه رأى له مكاشفات وخوارق عادات، وأجاز له في الطرق القادرية وسنده. ثم ذكر أخذه للشاذلية عن... سيدي إبراهيم ابن علي الغماري... مؤلف (بهجة الأنوار في طريق السادات الأخيار) تلميذ سيدي عبد السلام الأزهر و... الحاج أحمد بن عبد المومن الغماري تلميذ مولاي العربي الدرقاوي"¹.

وعندي أن السناني في قصيدته "اللوطية" لم يكن فقط يتحدث عن واقع عاينه في مجتمعه، ولكنه كان كذلك يساير، إن لم أقل ينافس - بالتعبير الشعري الشعبي - صديقه مولاي أحمد بن المامون البلغيثي الذي كتب "تشنيف الأسماع في أسماء الجماع وما يلائمه من مستلذ السماع"²، مستعرضاً فيه جوانب لغوية ومسائل فقهية ولطائف أدبية ونوادر متصلة

1- الإعلام ج. 3، ص: 42 أثناء ترجمة الشاعر (المشار إليها سابقاً).

2- المشار إليه قبل.

بالموضوع لم يتخرج من ذكرها وتفصيل القول فيها، على ما تتضمنه من فحش.

3- تلفت النظر كذلك قضية ذكر اسمه في قصائده. فهو إذا كان في معظمها يكتفي بقوله: "ادريس بن علي" فإنه في بعضها يضيف بعض الأوصاف أو الألقاب، على نحو: "كثير الامداح"، "المعرب الأديب"، "المشوق"، "عالي المرتبة"، "مداح الزهره"، "الماهر"، "اوصيف الاشراف" ؛ وأحياناً يقول: "ادريس" فقط. وقد يضيف بعض التعريفات كقوله: "من اخيار بني مالك"، "ادريس بن علي السملالي"، "الحاج ادريس بن علي ولد الفقيه الهلالي"، "ادريس بن علي المالكي"، "ادريس ابن علي السناني"، "ادريس السناني"، "ادريس بن علي والأصل سناني"، "ادريس بن علي الفقيه السناني"، "السناني الفقيه الحاج ادريس"، "ادريس بن علي والأصل ما خفى". ثم إنه في قصائد معدودة لا يذكر اسمه، أو يشير إليه بحساب الجمل.

وليس يخفى أن الاكتفاء باسم "ادريس بن علي" أو "ابن علي"، جعل بعض المنشدين وحتى بعض الدارسين تختلط عليه نسبة بعض القصائد إليه أو إلى غيره ممن لهم نفس التسمية ؛ على حد ما وقع لمؤلفي

”نفح الأزهار“¹ اللذين التبست عليهما قصيدة ”الساقى“ للسناني، فنسبها لابن علي ولد ارزين.

4- أما عن طبيعة شعره، فهو قد كان -كما سبقت الإشارة إلى ذلك- ينسج على منوال السي التهامي المدغري، مع إعجابه بسيدي قدور العلمي وارتباطه سلوكياً به واعتباره عمدته، كما يدل على ذلك مدحه له في القصيدة التي حربتها -وهي منشورة في هذا الديوان-:

رِبَتْ اِجْمِيعَ الخِيراتِ والسَّعادةِ
في اِزِيارَةِ غوثِ الوجودِ العِلامي
ولي اللهُ الماِجدُ المَكْرَمُ سيدي قَدور

ثم إن السناني يحدد لإبداعه الشعري ثلاث خصائص هي الواردة في القسم الأخير من قصيدته ”فضيلة 2“، حيث يقول:

يا راوي خد اصحيح مايتي واحسن بها يا اديب تدرك تفضيلة
واعرف هذا الحلة اتصول بثلاثة لا تبديل:

المعنى، الميزان السليس، وغاية المناسبة من اخلاق انبيلة،
وانهيب اسلام الله للدهاة اهل المجد اوصيل

1- كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

5- بهذا كان للشيخ السناني حضور بارز في الساحة الأدبية، ولا سيما بين مبدعي الملحون وحفاظه ومنشديه، يزورونه ويأخذون عنه ويستجيزونه، على غرار ما كان له مع الشاعر السلوي عبد الرحمن حمدوش¹ الذي حرر له الحاج ادريس إجازة بمناسبة زيارته لفاس، هذا نصها، وهو منقول من خطه الذي نورد صورته كما ورد في أوراق عضو لجنة الموسوعة السيد عبد الله الحسوني -على ما فيه من بعض الأخطاء ما لم يكن من خطه-: "لسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وحده وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله. يقول كاتبه عبد ربه تعالى الحاج ادريس ابن علي بن علي بن الغالي السناني الفاسي لين الله قلبه القاسي، وبعد: فقد وقد علينا حضرة فاس الإدريسية الشيخ الحبر الفد الأديب المعناوي السيد عبد الرحمن حمدوش السلاوي غفر الله لنا وله جميع المساوي، وجلسناه وسمعنا كلامه فوجدناه رجل من الشعراء الكياس أهل البلاغة والفصاحة بالتضمين والجناس. ويعلم من يقف عليه بأني أجزته إجازة تامة كما أجازه غير واحد من أهل فاس حفظها الله من كل باس عام 1285هـ عبد ربه ادريس ابن علي السناني".

1- انظر ترجمته في:

أ- معلمة الملحون -ج. 2، ق 2 ص: 167 (سبق ذكرها).

ب- معلمة المغرب مجلد 11 ص: 3581 (منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر - مطابع سلا 1421هـ=2000م).

ومن المفارقات أنا نجد من بين قصائد الشاعرين تهاجيا عنيفاً كان
قد بدأه حمدوش بقصيدته :

من نقر الباب ما يله غير جوابه وغرَّ به من جابو
من حرقتة الضرسة جا للكلاب

ثم رد عليه السناني بـ "قصر الغنان"، وهي قصيدته الوحيدة في
الهجاء، وحربتها:

قصر الغنان

ياللي غراتو نفسه وطول السانو- * -وابغى ايكون شيخ ابقوة الغنان
وقد يكون ذلك تم في مرحلة من حياة الرجلين.

*** **

ولعلنا في ختام هذا التقديم أن نشير إلى ظاهرة ازدواجية التعبير
الشعري ما بين المعرب والملحون، ليس فقط عند السناني، ولكن كذلك عند
التهامي المدغري قبله¹، وبعدهما عند السلطان المولى عبد الحفيظ، الذي
جمع بين النمطين، إذ ترك ديوانا في الملحون² إلى جانب قصائد معربة
بعضها من المطولات.

1- انظر ديوانه المنشور ضمن موسوعة الملحون.

2- ستنشره الأكاديمية قريبا إن شاء الله.

فعلى الرغم من تبريز هؤلاء الشعراء الثلاثة في المعرب والملحون، فإن شهرتهم بين معاصريهم من الأدباء قامت على ما أبدعوه باللغة العامية. وهو ما يثير قضية كبرى¹ تدل على المكانة التي كانت لهذا الإبداع في القرن التاسع عشر، ولا سيما في نصفه الأخير وأول العشرين. وتدل في الوقت نفسه على انتقال مشعل الشعر إلى أمثال شعرائنا الثلاثة بسبب واقع المفاهيم والاتجاهات يومئذ، وكذا واقع الأدب والذوق والثقافة عامة.

الرباط، في 3 ذي الحجة 1433هـ

الموافق 19 أكتوبر 2011م

1- انظر مناقشتنا لهذه القضية في "مدخل" كتابنا "تطور الشعر العربي الحديث والمعاصر في المغرب من 1830 إلى 1990" : مفاهيم واتجاهات ابتداء من ص: 47 (الطبعة الأولى - منشورات النادي الجرازي رقم 11 - مطبعة الأمنية - الرباط 1418هـ=1997م).

موسوعة الملحون

ديوان السلطان

مولاي عبد الحفيظ

جمع وإعداد:

لجنة الملحون

التابعة لأكاديمية المملكة المغربية

إشراف وتقديم:

عباس الجراري

عضو أكاديمية المملكة المغربية

منشورات الأكاديمية

طبع المعارف الجديدة-الرباط

1435هـ=2014م

”هذا ديوان فائق ومجموع رائع، بارع عظيم الشأن شامل الدرر المعاني وفحوى البيان، جمع من الملاحظة أصفها وأعلاها ومن الرقائق والحكم أوفها وأعلاها، فأصبحت به نفوس ذوي الأدب في ابتهاج وهمم العواني في تحريك وانزعاج، وكيف لا وهو من بنات أفكار من لا يضاهي نجاره ولا يماثل فخاره، كوكب الأدب الوقاد الناظم الناثر المشارك الحجة النقاد، سلطان البلغاء الذي تاهت العقول في تصانيفه وحارت الأوهام في فنون تصاريفه، أمير المومنين ناصر الملة والدين، سيدنا ومولانا عبد الحفيظ لا زال حسامه منتصبا لكل فظ غليظ، أدام الله نصره وتأييده وخلصه ملكه ومآثره العديدة آمين“.

عنوان الديوان كما في الطبعة الحجرية

بسم الله الرحمن الرحيم

يتذكر المتتبعون للدراسات التي نشرتها عن "الملحون" بدءاً من كتاب "القصيدة" إلى مقدمات دواوين "موسوعته"، أنني أثرت مجموعة من الظواهر والقضايا تتصل بهذا الفن، ولا سيما حول مدى شعبيته وكبير اهتمام فئة من العلماء والفقهاء به، وكذا بعض الملوك والأمراء، إلى حد المشاركة، ليس فقط عبر الإعجاب به والطرب له وتشجيع أشياخه، ولكن كذلك من خلال مساهمتهم بنظم قصائده.

ومن غير أن أحتاج إلى استحضار كل عناصر هذه الظاهرة أو القضية، فإنه يكفيني أن أقف عند حالة المولى عبد الحفيظ، هذا السلطان "الشيخ" الذي تسعد أكاديمية المملكة المغربية بإصدار ديوانه، أو بالأحرى إعادة إصداره في نشرة جديدة ضمن سلسلة موسوعة الملحون.

وعلى الرغم من أن مصادر مغربية وأجنبية كثيرة أفاضت في التعريف بهذا السلطان وما عانى عهده العصيب والمرحلة كلها من أحداث حاسمة، فإنني -سيراً على النهج الذي سلكته في سائر دواوين "الموسوعة"- أرى ضرورة الإشارة إلى بعض هذه المصادر، مع تقديم ترجمة مركزة ومختصرة له، أحاول فيها عرض أبرز محطات حياته، وكذا الملامح التي تظهر

اهتماماته العلمية، وما له في مجال التأليف وقرض الشعر، سواء منه المعرب أو الملحون.

فمن الكتب التي عرّفت به أذكر للمؤلفين الآتية أسماؤهم:

♦ أحمد المنصوري

كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر¹

تحقيق محمد بن لحسن وتقديم مصطفى الكثيري

♦ جامعة مولاي علي الشريف

الدورة التاسعة عن المولى عبد الحفيظ²

♦ الحسن بن الطيب بن اليماني بوعشرين الخزرجي المكناسي ثم المراكشي

التنبيه المعرب عما عليه الآن حال المغرب³

تقديم وتصحيح محمد المنوني

♦ خير الدين الزركلي

الأعلام — قاموس تراجم⁴

♦ روم لاندو

تاريخ المغرب في القرن العشرين⁵

1- منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير — مطبعة الكرامة — الرباط 2004م.

2- نشر وزارة الثقافة — الرباط 2001م.

3- الطبعة الأولى — دار نشر المعرفة — الرباط 1415هـ=1994م.

4- الجزء الرابع — الطبعة الثالثة — بيروت 1389هـ=1969م.

5- نشر دار الثقافة — بيروت 1963م.

◆ عباس الجراري

تطور الشعر العربي الحديث والمعاصر في المغرب من 1830 إلى 1990م¹

◆ عباس الجراري

الزجل في المغرب : القصيدة²

◆ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني

مفاكهة ذوي النبل والإجادة حضرة مدير جريدة السعادة³

دراسة وتحقيق محمد العلمي والي

◆ عبد الرحمن بن زيدان

إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس⁴

◆ عبد الرحمن بن زيدان

الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة⁵

◆ عبد الرحمن بن زيدان

العز والصولة في معالم نظم الدولة⁶

◆ عبد الله الجراري

التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين⁷

1- الطبعة الأولى - مطبعة الأمنية - الرباط 1997م - منشورات النادي الجراري رقم 11

2- الطبعة الأولى - مطبعة الأمنية - الرباط 1390هـ=1970م.

3- الطبعة الأولى - مطبعة دار أبي رقرق للطباعة والنشر -2013م.

4- الجزء الأول - الطبعة الأولى - المطبعة الوطنية - الرباط 1347هـ=1929م.

5- المطبعة الاقتصادية بالرباط لصاحبها مصطفى بن عبد الله -1356هـ=1937م.

6- مطبوعات القصر الملكي بالرباط - الجزء الأول 1381هـ=1961م. الجزء الثاني 1382هـ=1962م.

7- مكتبة المعارف - الرباط 1406هـ=1985م، منشورات النادي الجراري رقم 1

◆ عبد الله الجراري

دروس التاريخ المغربي¹

◆ عبد الله الجراري

شذرات تاريخية من 1900 إلى 1950م²

◆ عبد الله العمراني

سلطان عالم شاعر - مقال³

◆ عبد الله كَنُون

أشذاء وأنداء⁴

◆ عبد الله كَنُون

أمرأونا الشعراء⁵

◆ عبد المجيد بنجلون

هذه مراكش⁶

◆ علال الخديمي

الحركة الحفيظية أو المغرب قبيل فرض الحماية الفرنسية⁷

1- الجزء الخامس - الطبعة الأولى - المطبعة المحمدية بالرباط 1365هـ=1946م.

2- الطبعة الأولى - مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء 1396هـ=1976م.

3- مجلة "دعوة الحق" السنة الحادية عشرة - العدد الرابع - ذو القعدة 1387هـ=فبراير 1968م - خاص عن: "القرآن وعلومه في عهد الدولة العلوية الشريفة".

4- مطابع البوغاز - طنجة 1986م.

5- المطبعة المهدية - تطوان (بدون تاريخ).

6- مطبعة متولي - القاهرة 1949م.

7- دار أبي رقراق للطباعة والنشر - الرباط - الطبعة الأولى 2009م.

◆ علال الخديمي

معلمة المغرب – مادة: عبد الحفيظ¹

◆ محمد غريط

فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان²

◆ محمد الفاسي

معلمة الملحون – تراجم شعراء الملحون³

◆ مصطفى العلوي

مولاي حفيظ سلطان الجهاد⁴

◆ المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب

رتاريخ المغرب – تحيين وتركيب⁵

إشراف وتقديم محمد القبلي

◆Arnauld Louis

Au temps des Mehallas ou le Maroc de 1860 à 1912⁶

1- المجلد 17 – طبع الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر – الرباط 1984م.

2- الطبعة الأولى – المطبعة الجديدة – الطالعة – فاس 1346هـ.

3- ج. 2، ق 2 – مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية – سلسلة التراث – مطبعة الهلال العربية للطباعة والنشر – الرباط 1992م.

4- الجزء الثالث من كتابه: "المناورات الأجنبية ضد السيادة المغربية" – الطبعة الأولى – مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء 1410هـ=1989م.

5- منشورات المعهد – الرباط 2011م (مترجم إلى الفرنسية في طبعة منفصلة).

◆ Charles-André Julien
Le Maroc face aux impérialismes 1415-1956¹
◆ Encyclopédie de l'islam²

*** **

وعن حياة المولى عبد الحفيظ، يكفي أن أشير إلى أنه أحد أبناء السلطان الحسن الأول الذي بويع عام 1290هـ-1873م، وتوفي سنة 1311هـ-1894م. وهم عدة أبناء كان لبعضهم ظهور بارز في هذه الفترة العصيبة من تاريخ المغرب الحديث، بدءاً من المولى عبد الرحمن الذي كان يعرف بالكبير، إلى المولى عبد العزيز الذي بويع بعد وفاة والده رغم صغر سنه، إذ ولد في 1298هـ-1881م، وتولّى في 1311هـ-1894م، وتنازل في 1326هـ-1908م؛ مع أن ولاية العهد كانت معينة للمولى امحمد؛ في حين كان مولاي عمر خليفة بفاس، والمولى عبد الحفيظ خليفة في مراكش، والمولى بلغيث قائداً لبعض الحملات، والمولى الزين - زين العابدين - زعيم ثورة مكناس ضد أخيه المولى عبد الحفيظ بعد توليه؛ ثم المولى يوسف الذي سيبايع بعد تنازل هذا الأخير.

ويسجل التاريخ أنه قد اعترضت المولى عبد العزيز ظروف صعبة كان يواجهها بتسلط واستبداد صدر الدولة يومئذ أحمد بن موسى (اباً احمد). إلا أنه بعد مدة من وفاة هذا الصدر في 1318هـ-1900م وما أعقبها من فتن

1 - Editions J. A. 1978

2 - Tome 3. Paris. Maisonneuve et Larose - Leyde E. J. Brill 1975

وأحداث، خُلع لبيب المولى عبد الحفيظ الذي ولد حوالي 1280هـ-1864م، والذي ارتبطت بيعته عام 1325هـ-1908م بميراث ثقيل عكسته بعض الثورات، كالتى قام بها الجيلالي الزرهوني الشهير ببوحمارة المتوفى سنة 1327هـ-1909م، وكذا التى تزعمها أحمد الريسوني المتوفى عام 1342هـ-1923م ؛ إضافة إلى ما ترتب على عقد الجزيرة في 1323هـ-1906م، وهو الذى أعطى لفرنسا حق إجراء بعض الإصلاحات، وما تلاه من أحداث كاحتلال فرنسا لمدينتي وجدة والدار البيضاء بعد عام واحد من هذا التاريخ. ومما زاد الوضع تأزماً محاولة إسبانيا غزو الريف، وكانت قد أعلنت من قبل حمايتها على الصحراء المغربية في 1302هـ-1884م، ثم قيام خليفة السلطان في تزنييت المولى الزين في مكناس ضد أخيه الذى اضطر إلى طلب مساعدة فرنسا بعد أن كان ينادي بالجهاد.

وكان نتيجة لهذا كله أن اضطر المولى عبد الحفيظ -وفق ما هو متداول- إلى قبول عقد الحماية الذى وقعه يوم ثاني ربيع الثاني 1330هـ الموافق 30 مارس 1912م ؛ في وقت بسطت إسبانيا نفوذها على الشمال بمعاهدة 16 ذي الحجة و27 نونبر من هذين العامين. إلا أنه سرعان ما أدرك خطر ما وقع، فاختر -أو فرض عليه- أن يتنازل ليخلفه أخوه المولى يوسف في 29 شعبان 1330هـ-12 غشت 1912م بحاضرة الرباط التى أصبحت العاصمة ؛ وتبدأ مرحلة جديدة توجت بالقاومة المسلحة ضد الاستعمار، ثم قيام الحركة الوطنية التى سيحتضنها الملك محمد بن يوسف

الذي ولد بفاس في 1327هـ-1909م، والذي ببيع يوماً واحداً بعد وفاة والده في 22 جمادى الأولى 1346هـ-17 نونبر 1927م، والذي استرجع المغرب حريته في عهده بعد أن عانى أزمة النفى منذ 9 ذي الحجة 1372هـ-20 غشت 1953م إلى حين عودته في فاتح ربيع الثاني 1375هـ-16 نونبر 1955م يحمل بشرى الاستقلال.

وهي فترة كانت فرنسا قد عينت خلالها سلطاناً -دمية- هو محمد بن عرفة المولود عام 1886م والمتوفى في منفاه الاختياري بنيس الفرنسية في 18 يوليوز 1976م، ليُدفن في باريز قبل أن ينقل جثمانه بعد مدة إلى المغرب حيث دفن في مقبرة باب الفتوح بفاس. ووالده عرفة هو شقيق السلطان الحسن الأول وخليفته على فاس وأقاليم الشمال.

أما المولى عبد الحفيظ، فقد انتقل بعد تنازله إلى طنجة، قبل أن يتوجه لأداء فريضة الحج عام 1913م ويزور بعض بلدان الشرق العربي التي منها بيروت ودمشق والقدس والقاهرة، ثم انتقل بعد ذلك إلى إسبانيا في 1914م، ومنها إلى فرنسا حيث عاش بقية حياته في محنة وضيق، لا سيما بعد أن صادرت حكومة الحماية مكتبته وممتلكاته ونقل أهله إلى الرباط. واستمر في فرنسا إلى أن توفي بها في فاتح محرم 1356هـ الموافق 4 أبريل 1937م لينقل جثمانه بعد أيام إلى فاس حيث دفن بضريح جده المولى عبد الله ؛ وقد أقيمت له جنازة رسمية كبيرة بحضور الملك محمد الخامس الذي

أبدى اعتناءً عظيماً بها "لم يشاهد مثله، وبقي حاضراً إلى أن تم دفنه ولم يتخلف قط عن حضور الذكر والتلاوة بالضحيق المذكور صبيحة أيام المآتم الثلاثة وبالغ... في توزيع الصدقات نقوداً وطعاماً وملابس على المعوزين في الأيام الثلاثة"¹.

وقد خلف موته أثراً بالغاً في نفس بعض الشعراء الذين رثوه، ومنهم ماء العينين بن العتيق (1307-1376هـ/1887-1957م)، ومحمد البيضاوي الشنجيطي (1311-1365هـ/1892-1945م)، اللذان اشتركا في قصيدة مطلعها²:

تعالى الله ذو العرش المجيدُ

هو القهار يفعل ما يريد

وفيها يقولان عن الفقيد وبعض خصاله:

فإن أمسى بروضته وحيداً

كما في العلم منصبه ووحيد

1- الدرر الفاخرة ص: 119

2- نشرت بجريدة السعادة عدد 4442 بتاريخ 12 مايو 1937 تحت عنوان: "حكم الموت عدل في التساوي". انظرها في ديوان محمد البيضاوي الشنجيطي (ص: 90-92 مطبعة بني ازناسن -سلا 2000م)، وديوان ماء العينين بن العتيق (ص: 118-121 نشر مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي -مطبعة بني ازناسن -سلا الطبعة الأولى 2004) وهما بتحقيق محمد الطريف. وفيهما ورد أن الشاعرين اشتركا في نظم هذه القصيدة.

فكم قاد الجنود إلى جنود
ورفر فوق هامته البنود
وكم سعد السرير على اعتزاز
وطأطأ تحت أخمصه العنيد
ونيطت من يواقيت المزايا
بأجياذ الزمان له عقود
وحيكت من سدى الأمداح فيه
لما يسديه من هبة برود
بنّت همّاته مجداً طريفاً
وشيد ما له بنّت الجودود
فكانا توأمين براحتيه
طريفُ المجد والمجدُ التليد

وكان شعراء آخرون من المغرب وخارجه قد مدحوه في حياته وأشادوا
ببعض منجزاته كعبد الله الفاسي (1278-1348هـ/1861-1930م) الذي
أنشأ مقطوعة بمناسبة بناء المسجد الجديد بأبي الجنود عام 1329هـ يمين
الداخل للقصر، وهي منقوشة به، وفيها يقول¹:

1- الدرر الفاخرة ص: 123

انظر مآثر من دانت له الأمم
هي المفاخر لا ما شاده هـرم
ليس المعالي سوى ما شاده ملك
بدر الملوك ومن تسمو به الهمم
"عبد الحفيظ" به الأيام فاخرة
وكل من قد مضى من قبله وهم
أما ترى المسجد السامي دعائمه
على التقى أسست ما خطها قلم
فقصره بأبي الجنود زاد علا
وكان مسجده الباهي له علم
العز طالعه واليمن خادمه
والسعد ساعده وكفه كـرم
يا سيداً عظمت في الناس أنعمه
لك السلامة طول الدهر والنعم
وأرّخنه أمير العز أسسه
والنون حصن وسبع الآي مختتم

ومنهم الأديب اللبناني خليل مطران¹ (1288-1368هـ/1871-1949م)
في "تحية"² وجهها للمولى عبد الحفيظ، يقول في أولها:

حَمْدٌ إِلَى السَّدَةِ السَّمَاءِ مَرْفُوعٍ
بِمَا يَحِقُّ لَهَا وَالْحَقُّ مَشْرُوعٍ
تِلْكَ الْأَرِيكَةُ عَيْنَ اللَّهِ تَكْلُوهَا
فَالْخَيْرُ فِيهَا وَعِنَهَا الشَّرُّ مَقْمُوعٍ
مُمْكِنٌ أَصْلُهَا فِي عِزِّ مَنْبِئِهَا
وَفِي السَّمَاءِ لَهَا بِالسَّعْدِ تَفْرِيعُ
الشَّرْقِ مَحْتِدِهَا وَالْغَرْبِ مَعْبِدِهَا
وَالْفَخْرُ فِي بِنْدِهَا الْخَفَاقُ مَوْسُوعُ
سُؤَاسِهَا أَشْرَفُ الْأَسْبَاطِ مِنْ قِدَمِ
بَنُو الْحُسَيْنِ الْمُلُوكُ الْقَادَةُ الرُّوعُ
لِلْمَجْدِ مَبْتَدِعُ مِنْهُمْ وَمُتَّبِعُ
وَاللِّمَامِ مَحْمُولٌ وَمَوْضُوعُ
تَدَاوَلُوا الْمَلِكُ حَتَّى نَابَهُ حَدَثُ
أَصْمُ خَيْلٍ بِهِ لِلْمَلِكِ تَضْيِيعُ

1- الملقب بشاعر القطرين بعد أن هاجر إلى مصر.

2- ديوان الخليل - نظم خليل مطران - الجزء الثاني ص: 14-16 (نشر دار المعارف بمصر - مطبعة دار الهلال 1948). وفي تقديمه لهذه القصيدة ذكر أنه قالها فيه وقد زار مصر عام 1910م.

فهبَّ يحفظه "عبد الحفيظ" بما
أقره والفؤاد الثَّبت مخلوع
وراضَ دولته حتى استقرَّ بها
والعرش في حصنه والحصنُ ممنوع
صينت به من غزاةٍ في الدُّجى انسربوا
إلى الحمى والسبيل البكر مفروع
وبعد أبيات يشير إلى الهدية التي وافاه به السلطان إذ يقول:

"عبد الحفيظ" حماك الله عش أبداً
وأمرُك المرتضى والقول مسموع
وافت هديتُك الجلى وأيتها
أن الفخار بما أهديت مشفوع
فما يُحاكي جمالاً فضلَ نسبتها
ولا سذاجتَها نقشٌ وترصيع

وقبل أن ينهي القصيدة يتوجه بالمدح لشخص المولى عبد الحفيظ على

هذا النحو:

يا حامياً للحمى والرأي حائطه
والسيف منصلت والرمح مشروع

ملكْتَ منا نفوساً لستَ واليها
بصونك المُلْكُ أن يدها تصدع
لو يُشترى صونُ ذاك المُلْكُ من خطر
لما بخلنا ولو أبناءنا بيعوا
مُلْكُ هو العربي الفذ ليس له
صنو وفيه شتيت الفخر مجموع

*** **

وإذا كان المولى عبد الحفيظ -رغم روحه الجهادي- لم يستطع أن يحافظ على استقلال المغرب، وأن يبقى جالساً على عرشه بسبب المناورات الخارجية والدسائس الداخلية وغيرها من الإكراهات والتحديات التي عجز عن مواجهتها والتغلب عليها، فإنه قد أوجد لنفسه موقعاً متميزاً في سوح العلم والأدب والتأليف وقرض الشعر.

وما كان أن يتسنى له ذلك، لولا نبوغه وما حصَّله بالتعلم والاجتهاد منذ طفولته، وما تلقاه فيها من معارف بقبيلة احمر ناحية مراكش، حيث أتم حفظ القرآن الكريم وعدداً من المتون الأساسية في الفقه والتوحيد والنحو واللغة والمنطق، مما كان يومئذ متداولاً في برامج التعليم. فكان أن نال بذلك تكويناً متيناً رسَّخه ونمَّاه بمجالسة كبار علماء عصره وحضور دروسهم والأخذ عنهم بشغف وإعجاب وتقدير.

وهو ما عبّر عنه بقوله: "فإني منذ زمن الشباب وقلبي مشتاق للعلم وأهله من ذوي الألباب، حتى جمعني الله مع كثير من العلماء والأولياء ذوي العقول واللطائف... فازداد قلبي لهم حبا، وتيهوني فما ملكت معهم عقلاً ولا لباً، ولا سيما علماء شنجييط الذين تحلوا بحلى لا يكاد القلم بها يحيط. ولي فيهم والحمد لله عدة أشياخ سامرتهم ومارستهم في قراءتهم وعبادتهم... حتى تعلمت ما شاء الله أن أتعلم، فسروا القرآن وشرحوا الحديث وألفوا في الأصول وما تركوا علم المعقول والمنقول"¹.

وقد ذكر "منهم الولي الصالح والقطب الواضح ذو التآليف العديدة والفوائد المفيدة والقدم الراسخ في معرفة الله عز وجل سيدي محمد الأغظف... ومنهم الفقيه العالم المتقن المتبحر المشارك في علم المعقول والمنقول المهاجر في سبيل رب العالمين الفار بدينه عن مخالطة الضالين المضلين... إذا ما ذاكرته في علم حسبت أنه هو الذي يعلم مع ملازمته للعبادة واستغراق ما عداها في تدوين الإفادة محمد الخضر بن مايايبي لقب جده بهذا لكثرة كرمه وعطائه"².

إلى جانب هذين العالمين الشنجييطيين، لم يفته أن يذكر من أشياخ بلده: "علامة دهره وفريد عصره الفقيه السيد التهامي، والفقيه السيد

1- كتاب العذب السلسبيل في حل ألفاظ خليل للمولى عبد الحفيظ، ص: 2 - مطبعة أحمد يمني - فاس

1326هـ.

2- نفسه، ص: 3

المهدي الوزاني، والفقهاء سيدي أحمد ابن سودة المري، والفقهاء سيدي فضول السوسي¹.

وبلغ من محبته للعلماء ورغبته في الاستفادة منهم أن استقدم العلامة الحافظ المصلح الشيخ أبا شعيب الدكالي، الذي كان قد أقام في مصر ثم في مكة حيث كان خطيب الحرم ومفتياً في المذاهب الأربعة، فقربه إليه وولاه قضاء مراكش قبل أن يعينه وزيراً للعدل والمعارف، مع إضافة الاستيناف إليه فيما بعد².

وفي هذا الصدد يذكر حضوره "الدروس الحفيظية" التي كان يجمع لها نخبة من علماء العدوتين: الرباط وسلا، ومن العلماء الشناقطة لسرد صحيح البخاري بمجلسه في القصر، والتي كان افتتاحها في ثالث رجب 1330هـ صدر النهار. وقد جمع شيخ الجماعة بالرباط الشريف سيدي المكي البطاوري سبعة من دروسه ذكر أنه كانت تتخللها دروس قاضي سلا الفقيه

1- نفسه. وانظر في كتاب "حول مائدة الغداء" لمحمد المختار السوسي، ابتداء من ص: 45 (مطبعة الساحل - الرباط 1983) كثيراً من متعلقات هذا الموضوع وغيره مما يتصل بالعهد الحفيظي من وقائع وأحداث، غير ما حكاه المؤلف السوسي نقلاً عن رواية باشا مكناس ادريس منو الذي كان رفيقاً للمولى عبد الحفيظ أثناء فترة الدراسة. وفي "فهرسة" للمولى عبد الحفيظ -مبتورة الأول والآخر- ذكر عدداً من العلماء الذين أخذ عنهم، وهم: محمد بن جعفر الكتاني، ومفضل السوسي، وأحمد بن سودة، والمعطي السرخيني، ومحمد السرخيني، ومولاي علي الروداني، وأحمد بن المدني، ومولاي علي الدمناتي؛ كما ذكر بعض الذين لقيهم وتذاكر معهم. (وهي مخطوطة في ورقات بالخرانة الحسنية رقم 12482. وقد أمدني بها وبغيرها -مشكوراً- محافظ هذه الخزانة، عضو لجنة الموسوعة الدكتور أحمد شوقي بنين).

2- انظر كتاب: المحدث الحافظ أبو شعيب الدكالي لعبد الله الجراري ص: 9-10 (سلسلة شخصيات مغربية رقم 1 - طبع الشركة الجديدة - دار الثقافة - الدار البيضاء - الطبعة الثانية 1399هـ=1979م).

علي عواد، إلى أن ختمت في آخر شعبان من العام المذكور، وسمّاها: "الفوائد الحديثية والمجالس الحفيظية"¹.

وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى الإجازة العامة التي كان كتبها له الشيخ عبد الحي الكتاني بعنوان: "الدر المنتخب والمستحسن فيما أسندناه للمولى عبد الحفيظ ابن السلطان المولى الحسن"². وهي مؤرخة في 1321هـ بمراكش التي كان فيها يومئذ خليفة لأخيه المولى عبد العزيز. وفيها حلاه المجيز بأوصاف دالة على فضله وعلمه وخلقه وكرمه.

وقد تمكن المولى عبد الحفيظ بهذا الاهتمام العلمي أن يقيم نهضة زاد في تجليات مظاهرها إنتاجه النثري والشعري، سواء ما نشر منه أو ما زال مخطوطاً؛ وكذا ما شجع على طبعه من تأليف غيره³. ولعل ما يهم في هذا التقديم هو ما خلف من مؤلفات علمية وتاريخية، ومنظومات وأشعار معربة وملحونة.

1- نشرت بعنوان: "الدروس الحديثية في المجالس الحفيظية" - الطبعة الأولى 1365هـ=1946م على نفقة دار النشر "الباب" - مطبعة الأمنية - شارع المامونية - الرباط.

2- مخطوطة بالخزانة الصبيحية بسلا تحت رقم 103 في نحو ثلاثة كراريس بخط تصعب قراءته. وقد أمدني بنسخة مصورة منها -مشكوراً- الأستاذ محمد العلمي والي محقق كتاب "المفاكهة" المذكور قبل؛ وفيه تحدث عنها (ص: 39)

3- انظر عناوينها وما يتعلق بها في المصادر التي سبق ذكرها في هذا التقديم لدا ترجمة المولى عبد الحفيظ، وانظرها كذلك في:

* المطبوعات الحجرية في المغرب إعداد وتقديم فوزي عبد الرزاق (ط. دار نشر المعرفة بالرباط - مطبعة المعارف الجديدة 1989م).

* فهرس المطبوعات الحجرية المغربية نشر مؤسسة الملك عبد العزيز دار البيضاء ضمن سلسلة (بيبليوغرافيات رقم 5 - مطبعة النجاح الجديدة 2004م).

فمن مؤلفاته :

♦ كشف القناع عن اعتقاد طوائف الابتداع المتقولين الذين حادوا

عن منهاج السنة وأحدثوا اعتقادات لم ترد عن شرع الدين وسنه¹.

♦ داء العطب قديم

ذكر في تقديمه أن القصد منه "هو البحث عن الأسباب التي كانت سبباً لاضمحلال المغرب ومتى كانت، بعد أن يعلم القارئ أن الغرض من هذا التقييد هو تتبع سيرة الأجداد وما فعلوا من المصالح الدنيوية والأخروية، لأن ذلك مثبت في محله في عدة تواريخ، وإنما المقصود هو التنبيه على ما طرأ عليهم من الحوادث التي صدّتهم عن تتبع أوائلهم في السهر عن السياسة الخارجية حتى قبلوا شروط الدول الأجنبية"².

♦ إعلام الأفاضل والأكابر بما يقاسيه الفقير الصابر

قال عنه في المقدمة: "هذا تقييد وضعته لنفسي تذكرة ولمن يمعن النظر فيه تبصرة، لأجمع فيه مسائل بلغ فيها للجانب الأسمى والملاذ الأحمى بعض الأقارب ما ليس بصحيح ولا بمتقارب على عادته مع من يؤمن بالله واليوم الآخر، فطرة جُبل عليها ما لا يسمع فيها موعظة واعظ أو زاجر، وبينت ما في تلك المسالك ليعلم للرأي أن الحق هنا لا هنالك. وها الفصول

1- طبع بالمطبعة المولوية بفاس العليا المحمية سنة 1327هـ.

2- مخطوط الخزانة الحسنية رقم 11400 ص: 2 (وتوجد نسخة أخرى بالخزانة نفسها تحت رقم 12160).

التي أبرق فيها وأرعد وأظلم وأفسد، جاريته فيها في تقريرها ليتضح له
تحديدها ولتتحقق بذلك أشياء لولا قول الشاعر:

من يعن بالحمد لا ينطق بما سفه

ولا يحد عن كريم المجد والكرم

لبينتها بيانا وأتيت بحججها القاطعة لسان كل من يروم أن يستر
ذلك عناداً أو بهتاناً¹.

♦ كتاب العذب السلسبيل في حل ألفاظ خليل

حلّى صفحته الأولى بهذه الأبيات:

كتاب السلسبيل شفا عليلي

ونيل المرتجى يشفي غليلي

وكنز الفضل من درر احتسابي

ومفتاح المواهب من خليلي

فبالنفس النفيسة خذه ذخراً

ونوراً في الهداية عن دليلي

1- ضمن مجموع مخطوط بالخزانة الحسينية رقم 12373 (ابتداء من ص: 227 إلى 258) ص: 227

وأعرب في بدايته أن القصد منه هو "تبيين ألفاظ المختصر وإعراب ما لا بد منه وتوضيح نصه، حتى يصير المشكل للقارئ قريب التقرير جامعاً للتحرير مع الاختصار ما أمكن وتنكيب المعترض وجلب حديث في المسألة إن تعين"¹.
ومن منظوماته :

♦ الجامعة العرفانية الوافية بشروط وجل فضائل أهل الطريقة

التجانية

وهي منظومة طويلة استغرقت خمساً وأربعين صفحة²، وجعلها وافية "بما يتطلبه المرید التجاني من لوازم الطريقة وآدابها، ناشرة لفضلها ولما صح من متين أسبابها"³.

♦ الجواهر اللوامع في نظم جمع الجوامع⁴

في ست ومائة صفحة، وكان قد أمر أبا العباس أحمد ابن الخياط بشرحه فكتب فيه عدة كراريس ومات قبل تمامه.

1- ص: 3 - مطبعة أحمد يميني بفاس 1326هـ.

2- مطبعة النهضة نهج باب سعدون - عدد 19 (1349هـ=1930م).

3- ص: 44

4- المطبعة المولوية 1327هـ.

♦ السبك العجيب في نظم مغنى اللبيب

في اثنتي عشرة ومائة صفحة، طبع مع الشرح الذي كان طلبه من
أبي عبد الله الأغظف الولاتي الحوضي¹.

♦ نظم الشمائل المحمدية والسيرة المصطفوية

في أربع وثمانين صفحة².

♦ نظم مصطلح الحديث

في عشر ومائة صفحة³.

♦ نيل النجاح والفلاح في علم ما به القرآن لاح

في ست ومائة صفحة⁴

♦ ياقوتة الحكام في مسائل القضاء والأحكام

في ست وعشرين ومائة صفحة⁵، أمر شيخه أبا عيسى المهدي الوزاني
فشرحها في مجلدات أربعة، كما أمر بشرحها أبا محمد التهامي بن عبد
القادر دعي الحداد فشرحها في مجلد.

1- المطبعة المولوية - فاس 1330هـ. ولعله كان قد طبع في القاهرة قبل ذلك عام 1325هـ.

2- المطبعة نفسها 1327هـ.

3- نفسها.

4- نفسها.

5- نفسها.

♦ القول المختار على الخلاصة والاحمرار

بهامش اختصار المواهب في النحو على الخلاصة للشيخ محمد بن صبت الشنجيطي، في تسع وتسعين ومائتين وألف صفحة¹.

♦ تكميل حاشية محمد بن زكري على صحيح الإمام البخاري

في الجزء الثالث من الحاشية الواقعة في خمسة أجزاء، مع تكميل آخر لمحمد بن المدني جنون².

بعد المؤلفات والأنظام العلمية، يبرز المولى عبد الحفيظ جانباً آخر لثقافته وإنتاجه، من خلال الشعر الذي أبدعه عربياً وملحوناً، في ازدواجية يصرح بها في مثل قوله في أول قسم من قصيدة: "جودي للمغروم":

ما جفّلتني اجفّاك ديما في اسنّك اكلامو

ملحون و منظوم

*** **

فمن المعرب قصيدة بُكائية قالها وهو في طريقه إلى الحج، بعد أن اضطر إلى التنازل عن العرش، تغلبه ذكريات الوطن المحتل والحنين إليه

1- طبع الكل على الحجر بفاس في ثلاثة أجزاء.

2- مطبوع كله على الحجر بفاس.

وإلى الأهل والأحباب وإلى ولد له صغير تركه خلفه، وهذا أولها، وقد سماها: "لسع العقارب والأفاعي في رد إفشاء من كان خبيث المساعي"¹:

تذكرت الديار ديار ليلى

فهام الدمع بين الوجنتين

وأحنو للوصال إذا بعيني

ترى الأنوار شبه الظلمتين

يهيجني تباعد كل خل

وأحرى نخبة بالروضتين

متى رمت التلذذ بعد هذا

يهيم القلب وجداً كرتين

إذا ما رمت نأياً بعد هذا

وقلت الصبر عند الصدمتين

ينهنني تذكر نجل أضحى

ضجيع الأرض بين الجدتين

ومثلها قصيدة ثانية يعرب فيها عما يعانيه من اتهام المتآمرين عليه

وعلى الوطن، يقول في بدايتها²:

1- انظرها في "شذرات تاريخية" المشار إليه قبل، ص: 32-36، وهي مطبوعة في كراسة مع القصيدة التي سأذكرها بعد، بعنوان: "نفائح الأزهار في أطيب الأشعار"، ص: 3-5 المطبعة العلمية بالمدينة المنورة

1331هـ. وانظرها كذلك في: "أشداء وأنداء" المشار إليه قبل، ص: 177-180

2- المصادر السابقة: الشذرات -ص: 36-38، و النفائح -ص: 6-8، و أشداء وأنداء -ص: 181-182

لا مرحبا بديار فوقها علم
أبان شرا وأفشى الفحش بينهم
لا بارك الله في أرض بها قطنوا
ولا سقى الغيث ربعاً فيه حكمهم
لا خير في العيش في الأصقاع قاطبة
إذا تأمر في العلياء منتقم
أنى تكون لهم في الأرض مكرمة
وبيت مجدهم في العز منهمدم
أنى تكون لهم في الأرض مفخرة
وقد تحقق عند الناس كذبهم
أنى تكون لهم في الأرض منقبة
ولا مواعد ترجى بينها حرم
يظن كل سخيـف العقل أنهم
في رتبة الفخر دون مجدها النجم
كلا وربك ما خط الكتاب لهم
فخراً ولا شهدت بفضلهم أمم

وفي نفس استسلامي لقدّر الحماية، نظم قصيدة "الطامة الكبرى"
التي منها هذه الأبيات: ¹

فإن كنت قد أعطيت جاهاً فحاسبن
نفائس أنفاس تجدها على خطا
وإن كنت قد أعطيت علماً ولا أرى
لديك سوى نزر فما يكشف الغطا
وإن كنت ذا ورد على فرض أنه
على المنهج المحمود فلتخش محبطا
أيرفع حكم الله أن قال قائل
رأيت خلاف الحكم كشافاً مورطا

وله غير هذه وتلك قصائد أخرى، كهاته ² التي قصد بها إلى مدح
النبي صلى الله عليه وسلم، والتي بدأها بمحاورة بينه وبين ربة الجهل
التي حاولت أن تثنيه عن العلم الذي هو متشبت به ومقتنع بفضله
وأهميته:

أناخت ببالي ربة الجهل تسأل
وأبدت أموراً ربما العقل يقبل

1- أشداء وأنداء ص: 176

2- انظر مقال "سلطان عالم شاعر" لعبد الله العمراني، المنشور في مجلة دعوة الحق، والمشار إليه قبل.

وقالت أرى أن تترك العلم معزلاً
فللجهل أقوام تسير وتـدأل
أما أنهم سادوا وشيدت حصونهم
أما أنهم في حبها الدهر أوغـلوا
فمن ذا رأيت للعلوم مسارعاً ؟
بلى ، كسبه من غير شك سيهمـل
أأنت خبير أن للعلم غربة
تقطع أكباد اللبيب وتذهـل ؟
فيرد عليها بقوله معرضاً بخصومه :
فقلت لها هذا كلام مهـذب
أريد به علم الشرائع يبطل
فلولا وجود العلم فينا لشيـدوا
دعائم من جهل ، وللجهل دول
ولولاه كانت في الخلائق أزمة
وتلك مراد الجاهلين ليجهـلوا
وهل تعلمين أنني في عصابة
تحرف معنى اللفظ قصداً ليفضلوا

أجادلها حيناً وحيناً أعامل
بصفح ، وماذا ينفع اللوم ميل
ثم لا يلبث أن ينتقل إلى المديح النبوي في مثل هذه الأبيات :
محمد خير المرسلين وجاهة
لدى ربه يوم المواقف جحفل
نبي أمين صادق ومصداق
رءوف رحيم خاتم ومبجل
كريم عظيم شافع ومشفع
سري وفي فاضل متفضل
تكامل خلقاً ثم خلقاً وإنه
هو الليث والغيث الروي والهبركل
تستر منه الحسن بالحسن فوقه
فلولاه سترا لم يسعهم تحمل
ولا علموا وحيماً تقادم عهده
ولا ما حوى ذاك الكتاب المنزل

ومن شعره المعرب كذلك¹، قصيدة طويلة رثى بها كلبة كانت عنده؛ وفي بدايتها يقول:

سكبت دمعها فهاجت مآقي -*- وتدانت وروحها في التراقي
برهنت لي عن ودها وقديم العهد منها بشدة الإشفاق
أوقدت بفراقها نار وجمدي -*- ليت شعري هل التفرق راق
أفزعتني بغشية قد علتها -*- فهرعت لضمها واعتناق
ومنه كذلك أبيات من قصيدة في شكوى الحال، أولها:

إليك رفعنا الأمريا مانع الأذى
فقد هالنا حزب الغواة بما أبدى
تمالاً أهل الكفر عنا بقوة
ولم يرقبوا للظلم إلا ولا عهداً
إذا علموا من ينتمي لمحمد
تراهم لفرط الغيظ في حربهم أسدا
ومثلها أبيات يتأسف على فراق المدينة المنورة، منها:

لهف نفسي على سعود رجال
تنظر الجود من سماء الوجود

1- أمراؤنا الشعراء -ص: 58-61 حيث ذكر المرحوم عبد الله كُنُون أن الذي مكنه من هذه القصيدة والنماذج التي أوردتُ بعدها، هو "أحد خدام السلطان".

لهف نفسي على بقاع رباها
مهبط الوحي للنبي الودود
أزفت رحلة النوى فدعاني
باعث الشوق مرشداً للقعود
ومن نماذج هذا الشعر أبيات من قصيدة نبوية يقول فيها:

فمن لم يكن يهوى الرسول وحزبه -*- ويعلم أن في المحبة ما يجني
مصاب عليه الموبقات تراكمت -*- وقد قال مقتاً بالبعاد الذي أفنى
ولا أريد أن أترك التمثيل لشعره المعرب، من غير أن أشير باستغراب
إلى قصيدة مدح فيها فرنسا باضطرار لا شك، وكان ألقاها في عيد
الجمهورية عام 1928م، على قبر الجندي المجهول في ميدان الإطوال
بباريز، مطلعها¹:

ألا أيها الجندي لك المدح ينسج
ومدح فرنسا في مديحك مدرج

1- انظر المفاكهة -ص: 219، وكانت القصيدة قد طبعت من قبل في المطبعة الجديدة بطالعة فاس عدد 64.
(انظر ترجمتها إلى الفرنسية ص: 220).

وأن أشير كذلك إلى أبيات يستدعي بها الشيخ ماء العينين ويرحب
به عام 1325هـ. وفيها يقول¹:

أيا قمر الدهر الذي تم نوره
ويا كعبة يحجها كل مهتد
أضاءت بك الأرجاء حتى تالألت
وأضحت تهني في الورى كل مقتد
وزاد سروراً في الخليقة وافراً
طلوع محياكم بهالة مقصد
فأهلاً وسهلاً مرحباً ثم مرحباً
بطالع سعد في الخلائق مسعد

*** **

ولعلي أن أشير قبل هذا إلى قلة الإنتاج الشعري المعرب بالقياس إلى
ما أبدعه في الملحون، على حدّ ما سيتضح بعد ؛ مع ملاحظة الإشكال
الذي يثار حول ما ورد من أن له "مجموعة قصائد وأمداح" طبعت في جزء
بالمطبعة السلوكية في فاس، كما عند ابن زيدان في "الدرر"². وهو ما يفرض

1- ديوان الأبحر المعينية للشيخ محمد الغيث النعمة، الورقة 195ط (مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط رقم
1376د، وقد حققه أحمد مفدي ونال به تحت إشرافي دبلوم الدراسات العليا من كلية الآداب بفاس عام
1975-1976م، وهو مرقون.

2- ص: 120 (وقد سبق ذكره في مصادر ترجمة المولى عبد الحفيظ).

السؤال حول مصير هذا المجموع، ما لم يكن المقصود به هو: "نفائح الأزهار" المشار إليه قبل.

ويبقى بعد هذا أن ما وصل -مجموعاً- من شعره غير ما ذكرت، هو ديوان الملحون المطبوع على الحجر بدون تاريخ، في عهد سلطنته، وقد كتب في صفحته الأولى عنوان طويل صيغ بعبارات مسجوعة؛ وهو الذي أوردته في مستهل هذا التقديم.

وعلى الرغم من أن الديوان جمع وطبع على الحجر في عهد سلطنة المولى عبد الحفيظ، مما يقتضي أن يكون تاماً وعلى الوجه النهائي الذي ارتضاه، فإنني قد وجدت إشكالاً فيما يتعلق بنسخه. وهو إشكال لم يعترضني بالنسبة للشعراء الذين سبقت دواوينهم في الموسوعة، إذ لم يكن لهم قبلها دواوين مجموعة. كما أن هذا الإشكال لم يكن واجهني حين كنت بصدد تهيبى أطروحتي في منتصف سنوات الستين من القرن الماضي، إذ كنت وقفت على نسخة وحيدة هي التي كانت معروفة يومئذ، وقد طبعت على الحجر بدون فهرس، وتقع في إحدى وستين صحيفة، وتضم تسعاً وثلاثين قصيدة أولها "التوسل" الذي حربته:

بالنبي واصحابو واكرامها ولفضال

غث هاذ الغرب واطرد كل ضالي

وهي بعينها النسخة التي ذكرها ووصفها إدريس بن الماحي الإدريسي في: "معجم المطبوعات المغربية"¹.

تم تبين بعد ذلك بفترة أنه توجد نسخ أخرى من الديوان تجمعت للجنة الموسوعة بأكاديمية المملكة، كلها تبدأ بالتوسل المذكور، وهي كالتالي:

أولاً: كناش كتب بخط مغربي متوسط في 22 رجب 1328هـ أي في عهد سلطنته، ويضم إحدى وستين صحيفة تحتوي على سبع وثلاثين قصيدة، ويوجد مخطوطاً بالخرزانة الحسنية، مسجلاً تحت رقم 4.980.

ثانياً: ثلاث نسخ مصورة عن المطبوع الحجري، ولكنها تختلف في عدد الصفحات والقوائد، وهي كما يلي:

1- نسخة كانت في ملك المرحوم الحاج محمد بن علال الحسيكة من مراكش، وتضم سبعمائة وأربعين قصيدة والقسم الأول من القصيدة رقم 48، وبداخلها بتر يمس قصيدتين، إضافة إلى عدم وجود قصيدتين أخريين. وكان قد سلمها مالكها - في حياته - لعضو لجنة الموسوعة السيد عبد الله الحسوني الذي أمد بها اللجنة.

2- نسخة ثانية من السابقة كانت في ملك عضو اللجنة السيد عبد الله الشليح، وكان قد قدمها للعضو المرحوم الحاج بوبكر بنسليمان².

1- ص: 220 (المشار إليه من قبل ضمن مصادر ترجمة المولى عبد الحفيظ).

2- وافته المنية يوم 22 ذي القعدة 1434هـ الموافق 28 سبتمبر 2013م في وقت كان هذا الديوان قد تم إعداده للطبع.

3- نسخة مصورة من الديوان الكامل المطبوع على الحجر، بها إحدى وثلاثون ومائة صحيفة، وتضم ستا وسبعين قصيدة، وكانت في ملك المرحوم بنسليمان الذي أغنى بها مجموعات اللجنة.

ويبدو أن الديوان المصورة منه هذه النسخة الأخيرة هو الذي ذكر المرحوم محمد الفاسي¹، وإن أشار إلى أنه يحتوي على ثمان وسبعين قصيدة ؛ إلا إذا كان وقف على نسخة من المطبوع مزيدة، أو وقع خطأ في الترقيم عند الطبع، فسجل 78 بدلاً من 76. ولعل هذا الديوان "الكامل" كان موجوداً في بعض الخزائن، ولم أتمكن-كما لم يتمكن المرحوم إدريس ابن الماحي- من الوقوف عليه ؛ أو أنه عُرف في فترة لاحقة، كعدد من مجاميع الملحون وغيرها من المخطوطات والوثائق التي اختفت في وقت ما، ثم ظهر بعضها فيما بعد.

مهما يكن، فإن ما انتهى إلى لجنة الموسوعة هو الذي تم اعتماده في نشر الديوان، ممثلاً في النسخة التي تحتوي إحدى وثلاثين ومائة صفحة، وتضم ستا وسبعين قصيدة، نحو ثلثيها في الغزل أو ما يعرف بـ"العشاقيات"، والباقي في الهجاء والتوسل والشكوى مما كان يعانیه المولى عبد الحفيظ، مع أنه نظمها كلها في مرحلة سلطنته، أو قبل ذلك يوم كان خليفة لأخيه بمراكش، إذ أن الديوان -كما سبقت الإشارة- طبع في

1- معلمة الملحون -ص: 306 (سبق ذكرها في المصادر).

تلك المرحلة التي واجه فيها عدة مشاكل هي التي أفضت إلى عقد الحماية.
وهو ما يكمن خلف المعاناة التي عبر عنها في ديوانه.

وقد أكد لي كثير من الأسيخ الذين لقيتهم واستفدت منهم يوم كنت
أهياً أطروحتي عن الملحون قبل زهاء نصف قرن، أن هذا الديوان نُظم له
في مراكش زمن خلافته فيها لأخيه المولى عبد العزيز، وأن الذين نظموا هم
ثلاثة من الشعراء والحفاظ الذين كانوا يجالسونه، وكانوا يتعمدون عدم ذكر
اسم الشاعر في آخر قسم من القصيدة كما جرت العادة بذلك، بل إنهم
كانوا يعلنون هذا التعمد على نحو ما في هذا البيت من قصيدة "الفراق":

والناظم طبعو يخفي اسميتو مسجاله

خذ صافي درّ وعقيان

وهؤلاء الثلاثة هم:

1- الحاج أحمد الزغبات الذي كان من أشهر حفاظ الملحون.

2- الكبير ابن عطية الذي كان طالب علم، وتولى الكتابة لابن داود

باشا مراكش يومئذ.

3- الأحمر المرياق الذي كان معروفاً بالارتجال والقول في المعارضات.

وقد توفي سنة خمس وستين وثلاثمائة وألف للهجرة.

وذكر المرحوم محمد الفاسي¹ من جلسائه -غير هؤلاء- حسن ابن شقرون، والفقير الدفلي، ومولاي ابيه البيطار، والهادي بناني، والحاج الجيلالي ولد غزالة، ومولاي الحاج العصيدة.

وبالإضافة إلى مثل هذه الرفقة الحميمية مع هؤلاء الأشياخ، كان تناوله لبعض الأغراض يشكك في أن يكون هو صاحب الديوان حقيقة، ولا سيما من خلال قصائده الغزلية التي يكشف فيها عن أسماء معشوقاته وما يقاسي من حبهن وتذللن وخضوعه لهن، مما لا أحتاج -لوضوحه فيها- إلى التمثيل له في هذا التقديم ؛ إذ يبدو وكأنه يتعارض مع وضعيته السياسية والاجتماعية ومكانته العلمية والأدبية ؛ في وقت كان متوافراً له وميسراً كل ما يتوق إليه من وسائل الإمتاع والمؤانسة.

ومع ذلك، فقد يكون عامل التقليد والتنافس الذي سار عليه كل شعراء الملحون، هو الكامن خلف هذه الظاهرة بالنسبة للمولى عبد الحفيظ الذي كان يزيد في إثارة الشك حول نسبة الديوان إليه، ما قاله في هجاء خصومه ؛ وإن كان له في هذا الغرض ما يبرره، بسبب مواقف المعارضة التي واجهها وما نشأ عنها من أحداث، سواء وهو خليفة أو سلطان، على نحو ما تبرزه قصائده هذا الغرض بوضوح في الديوان. وشبيهه بهذا ما عبّر

1- في ترجمته للمولى عبد الحفيظ بمعلمة الملحون ج. 2، ق 2: تراجم شعراء الملحون ص: 306 (مصدر سابق).

عنه في شعره المعرب ، بسبب ما عاناه بعد اضطرابه إلى التنازل والتغرب عن الوطن ، وما خلف عنده من ميل إلى التوسل والشكوى من الذين تنكروا له .

على أن تأمل هذا الجانب قد يفضي إلى اعتبار ما ورد في الديوان من قصائد في ذلك الغرض وما إليه ، صادراً عنه بعد تنازله ؛ على الرغم مما ذكر من أن الديوان أنشئ في فترة خلافته ، وأن طبعه — وهو غير مؤرخ — تم في عهد سلطنته ، اعتماداً على ما جاء في عنوانه المشير إلى المولى عبد الحفيظ بلقب "أمير المومنين" الذي جاء مقروناً بالدعاء له بدوام ملكه .

وفي سياق تأكيد نسبة الديوان لصاحبه ، رغم كل عناصر الشك المثار حوله ، أرى أن أذكر بأن الاهتمام بالملحون في مختلف مظاهر هذا الاهتمام ، إبداعاً وولوعاً وتقريباً لأشياخه ، لم يكن مقصوراً بين ملوك الدولة العلوية وأمرائها على المولى عبد الحفيظ ، ولكنه كان مما عرف به غيره من سلاطين هذه الدولة ، ولا سيما المولى عبد الله ، وسيدي محمد بن عبد الله ، والمولى عبد الرحمن ، وسيدي محمد بن عبد الرحمن الذي يكفي أن أمثل بما كان له مع التهامي المدغري ، وما كان يصدر عنهما من قصائد مجردة من اسم صاحبتها ، حتى لا يعرف المولى عبد الرحمن أن بعضها لولده سيدي محمد ، ولي عهده يومئذ ، وكان لا يريد أن ينغمس في مجال يبعده عما هو مهياً له ، وقد يدفعه إلى الانحراف¹ .

1- انظر في هذه القضية تقديم ديوان التهامي المدغري المنشور ضمن موسوعة الملحون (أكاديمية المملكة المغربية الرباط 2010م).

ولا أخفي أنني حين أترك جانباً هذه القضية، وأنظر في الديوان من حيث هو إبداع، وفق المقاييس التي تعارف عليها أشياخ الملحن، أجد للشاعر المولى عبد الحفيظ عدة خصائص تبرزها قدراته التعبيرية، بدءاً من التي قد يلاحظ فيها بعض التكلف، وكأنه في ملحونه يبدو متأثراً بثقافته العلمية والأدبية، مما يجعله يستعمل بعض العبارات والأمثال، كقوله في قصيدة: "لاش تظلم قوسك":

قولوا لمن جا يرمي شيهائه في كلامنا
الصيف ضيعت البائه

وقوله في "توسل":

مَنْ أَعْلَى وَطَعْنَ تَهْدُ ذَاتُهُ يَا جَلِيل - * - حَتَّى يَبْقَى شَوْفَ نَفْسِهِ ادْلِيلَة
فِي حَيْصِ بَيْصِ مَا يِبَالِي بِالْحَيْلَة

وهو أحياناً يتحدى ببعض الاستعمالات اللغوية، كتركيزه على حرف التاء (المثناة) في قصيدة لا توجد التاء (المثلثة) بها إلا في كلمة واحدة هي "ثلاثي"، كما في قصيدة "الياقوت" حيث يقول:

حُدُّ حَرْفِ امْبَهَجِّ مَا فِيهِ نَقْطٌ لثَلَاثِي
سَوَى لَفْظٍ لثَلَاثِي

وإلحاحاً منه على الإيقاع الموسيقى في بناء البيت، يركز على بعض الحروف، كقوله مكرراً حرفي السين والنون في حربة قصيدته "بدر احبابي":

جُدُّ أْبْدَرِ احْبَابِي - * - بَكْ رَاسِي نَاسِي نَاسُو افناتُ انفاَسُهُ

نهواك عن اجميع الناس والاحباب

وارضيت اوصال ارضاك بالعدرة زهو المحبوب

وفي السياق التحسيني يبرز استعمال المولى عبد الحفيظ لأسلوب "التضمين"، وهو ما يقابل "لزوم ما لا يلزم" في الشعر المعرب؛ وكان يكثر منه كما في قصيدة "هشومة" التي التزم في حربتها حروف الميم والهاء والجيم، إذ يقول:

روفي يا علاج القلب والمهاج

يا غزالي هشوم الكاوية امهـاجي

كما يبرز استعماله لأسلوب "النشب" بكلمة¹، ويقتضي استهلال الشطر بالكلمة نفسها التي ختم بها الشطر السابق، كقوله في حربة "ظبي الحمى":

مَنْ أَهْمُومِ الهَجْرَةِ والتَّيْهِ شَابِ لِي رَاسِي

رَاسِي الحَاجِبَةِ يَهُوِي بَدْرِ النَّاسِ

1- قد يكون النشب بكلمتين أو بشطر، وهو ما لم يستعمله المولى عبد الحفيظ.

الناس اللي تعشق حالها ما تعدر بقياس
يا حسرة لئفاسي

هذا، وتجدر الإشارة إلى أن المولى عبد الحفيظ، إعجاباً منه بنظم
الفقيه العميري¹، وسيراً على نظام "التخميس" المعروف في الشعر العربي،
فإنه انطلق من قصيدة هذا الأخير التي حربتها:

طال عهدي واجفيت اللي ايجبني
بالفرح امع السرور دوزت اسنيني - * - من كال حقه يغمض عينه
والتي يصرح في أواخرها باسمه:

رصعه العميري ترصيع ما زني
حال المسكين والنفس مريني - * - يا رب يوم الحساب تقبل منه
وهي من الثلاثي، فجعلها المولى عبد الحفيظ خماسية على هذا
النحو:

طال عهدي واجفيت اللي ايجبني
والغيت اللي ايزورني في ابساتني - * - بالفرح امع السرور دوزت اسنيني
في ابساتني
من كال حقه يغمض عينه

1- هو محمد بن قاسم العميري، من أشهر أشياخ مكناس، كان معاصراً للمولى عبد الرحمن، وكان سابقاً إلى فن
"الجفريات". انظر كتاب "القصيدة" المشار إليه ضمن مصادر ترجمة المولى عبد الحفيظ - ص: 627-628

وزاد فخلل القصيدة بعدد من "الكراسة"¹ فصل بها بين الأقسام التي خمس أبياتها، كما هو واضح من وضع القصيدة في الديوان².

وبعد، فإنه يبقى في ختام هذا التقديم أن أثير الانتباه إلى أهمية هذا الديوان الذي يسر أكاديمية المملكة المغربية أن تجدد التعبير عن بهجتها بإعادة نشره ضمن موسوعة الملحون، بعد أن كان صدر قبل نحو قرن في طبعة حجرية هي اليوم -لندرته- في عداد المخطوط.

فبالإضافة إلى قيمته الإبداعية الدالة على علو كعب المولى عبد الحفيظ في فن الملحون، إلى جانب مكانته العلمية والأدبية وما له في مجال التأليف وقرض الشعر العرب، فهو وثيقة تكشف جانباً يُعني ما تسعف به الوثائق التاريخية في معرفة بعض خبايا حياته الخاصة، وما تفاعل به من أحداث خطيرة أدت إلى فرض الحماية على المغرب، وأفضت به إلى تنازل اضطراري عن مُلك أصبح بعده يعاني ظروف النفي والاعتراب.

الرباط، في 10 محرم 1435هـ

الموافق 14 نونبر 2013م

موسوعة الملحون

1- ويطلق عليها: "السويرحات" و "المطيلعات" و "النواعر" وهي أبيات تكون بين أقسام القصيدة أو تستهل بها. (انظرها في أماكنها من "معجم مصطلحات الملحون الفنية" لعباس الجراي - مطبعة فضالة 1398هـ=1978م).

2- انظر قصيدة العميري في "ملحق" هذا الديوان.

ديوان

الشيخ محمد بن علي الدمناتي المسفيوي

جمع وإعداد:

لجنة الملحون

التابعة لأكاديمية المملكة المغربية

إشراف وتقديم:

عباس الجراري

عضو أكاديمية المملكة المغربية

منشورات الأكاديمية

طبع المعارف الجديدة-الرباط

1437هـ=2016م

بسم الله الرحمن الرحيم

في إطار مشروع "موسوعة الملحون" الذي تضطلع به أكاديمية المملكة المغربية، تم إصدار تسعة دواوين لشعراء أعلام من مختلف المراحل التاريخية، هم:

1- عبد العزيز المغراوي

2- الجيلالي امتيرد

3- محمد بن علي ولد ارزين

4- عبد القادر العلمي (سيدي قدور)

5- التهامي المدغري

6- أحمد الكندوز

7- أحمد الغرابلي

8- ادريس بن علي (لحنش)

9- المولى عبد الحفيظ (السلطان).

ومواصلة للعمل في هذا المشروع، يسعد الأكاديمية أن تنشر ديوانا جديدا هو العاشر في سلسلة الموسوعة، ويتعلق بالشاعر محمد بن علي الدمناتي المسفيوي الذي يعد من أبرز أشياخ الملحون المعاصرين، ولا سيما في أسفي؛ هذه المدينة الجميلة المطلة على المحيط الأطلسي، والمنتمية لـ

“عبدة”، جهة “مراكش أسفي” والشهيرة بتاريخها وآثارها، وبصلحائها وعلمائها، وبصناعتها الخزفية وصيد السمك وتصبير السردين، وكذا بتألق شعرائها المبدعين في فن الملحون. وقد عرف هذا الفن ازدهاراً يكشفه عدد النابغين من أبنائها فيه، أمثال محمد بن حمدون بن معاش، والحاج ابن احساين، وأحمد بن علي الغنيمي، ومحمد الميلودي، والفقيه البوعلالي، وابراهيم المدعو أبيه بن العربي المعاشي، والحبیب الهايج، والطاهر بن محمد الرڪراكّي، والصديق المسفيوي، والحاج عبد الله بنحيدده، وعبد السلام بن بوعزة، ومولاي اسماعيل السلسولي، وأحمد لبريبج، والحاج عمر بلحسن، والحاج محمد لمشيكر، واسماعيل الشوفاني، وشاعرنا ابن علي الدمناتي.

من هؤلاء الشعراء أدركت الشيخ مولاي اسماعيل العلوي السلسولي الذي انتقل إلى رحمة الله يوم رابع شوال 1435هـ الموافق فاتح يوليوز 2014م، وكان عضواً في لجنة الملحون بالأكاديمية، وكانت تجمعني به صداقة خالصة جعلتنا نلتقي أحياناً في أسفي وأخرى في الرباط. كما أعرف الشيخ أحمد لبريبج الذي تربطني به مودة تجعله يزورني باستمرار، ويمدني ببعض قصائده، وهو مقيم في الدار البيضاء.

وقد ترجمت لبعض هؤلاء الشعراء وغيرهم ممن نبغوا في أسفي عدة مصادر، هذه أهمها مرتبة حسب تاريخ نشرها:

1- كتاب جواهر الكمال في تراجم الرجال

(وهو القسم الثاني من تاريخ أسفي وما إليه)

لمحمد بن أحمد العبدى الكانونى

أ- الجزء الأول - الطبعة الأولى - جمادى الثانية 1356هـ

ب- الجزء الثانى

تحقيق علال ركوك والرحالى الرضوانى ومحمد السعيدى

الطبعة الأولى - مطبعة ربانيت الرباط 2004م

2- الشيخ المجدد المبدع فى فن الملحون

للمرحوم الحاج أحمد معنينو

مقال نشر فى مجلة البحث العلمى - المعهد الجامعى للبحث العلمى

-جامعة محمد الخامس- الرباط

السنة 14، العدد 28 - رجب- ذو الحجة 1398هـ=يوليو-دجنبر

1977م

3- شعراء الملحون السلويون¹

للمرحوم محمد الفاسى

محاضرة ألقىت بقاعة الأفراح بعمالة سلا، يوم 3 مارس 1984م

بمناسبة الذكرى 24 لجلوس الملك المغفور له جلالة الحسن الثانى على

العرش

1- عدّ الفاسى مترجمنا مع الشعراء السلويين لطول إقامته فى سلا وما كان له فيها من أثر.

4- معلمة الملحون

للمرحوم محمد الفاسي

♦ ج. 2، ق. 2 = تراجم شعراء الملحون

—مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية —سلسلة التراث —الرباط —

1991م

♦ مائة قصيدة وقصيدة في مائة غانية وغانية

مطبوعات الأكاديمية —الرباط — 1997م

5- الشعر الملحون في أسفي

للدكتور منير البصري

منشورات مؤسسة وكالة عبدة للثقافة والتنمية —مطبعة النجاح

الجديدة —الدار البيضاء 1422هـ-2001م

6- دليل شعراء الملحون في أسفي

للدكتور منير البصري

كراسة مرقونة خاصة

7- أعلام من أسفي (ج. 2)

لسعيد الجدياني

الطبعة الأولى — مطبعة دار وليلي للطباعة والنشر

مراكش 2008م

وفي هذا الصدد يشار إلى أن للشاعر السلوي حسن اليعقوبي قصيدة
فائية استعرض فيها أسماء بعض أشياخ الملحون في أسفي، جعلها في أربعة
أقسام بدأها بقوله :

نبدا باسم اللطيف، عالم بالسر وخافي

سبحانه دايم البقا

فالحكم وتصريف من لا يسعى طرفا

اذكر وارحم تخفيف واعمل للزاد الوافي

واعرف دار الفيش

وفي أحد أبيات القسم الثالث يذكر الشيخ ابن علي الدمناتي بقوله :

لشياخ ادراج نصيف وسم وءاسم اشرافي

المسفيوي بن علي الحبر وتلميذ وظيف

رفقا زار عرفا

كما يشار إلى توسل للشاعر السلوي مولاي ادريس بن الحسين
المباركي، يقول في حربته :

زَايِكَ فَاَلدَّنِي فِي مُحَمَّدٍ شَافِعِ الْأَنَامِ
يَوْمَ الْمَحْشَرِ مَا يُدَوِّزُنَا

وفي آخره يذكر شيخه محمدا بن علي الدمناتي فيقول :

والمهَرَّباني مسفيوي مشنوعف اللطام رَحْمو يا لكَرِيم رَبنا

*** **

ولد الشاعر الدمناتي في مدينة أسفي حوالي عام 1280هـ الموافق 1863م، حيث نشأ وتربى تحت نظر والده السيد المحجوب الذي كان يحترف الحدادة. وبعد أن حذق القرآن الكريم في كُتاب الفقيه المدرر الطالب الجبلي، انخرط في الزاوية العيساوية التي كانت بجوار بيت والديه. وفيها تسنى له أن يعرف "الذكر" وحلقاته تذوقاً وحفظاً وممارسة. ومن باب المشاركة في هذا الجو بدأ ينظم بعض "الذكريات" و"العروبيات" التي كان يشجعه عليها ويراجعها معه شيخه الطالب بنسعيد الروداني.

ثم أتيح له أن يسافر إلى الحجاز حيث أدى فريضة الحج أكثر من مرة، وفق ما يبدو من رسالة بعثها من المدينة المنورة إلى صديقه مولاي المامون العلوي بتاريخ 1326هـ الموافق 1908م، وفيها يقول بعد أن استفسره عن أحواله: "... وأماً ما كان منا فإني لا زلت بالمدينة المنورة، ووقفت العام الأول ووقفت في هذا العام المبارك ورجعت إلى المدينة بقصد القدوم على الشام إن شاء الله تعالى، ونحن في نعمة شاملة، لله الحمد وله المنة...".

وحسب المرحوم معنينو، فإنه في الحجاز تعرف إلى بعض الشخصيات التركية، بل إن أحد الضباط العثمانيين دعاه لزيارة تركيا، آملاً أن يعالج بالأحجبة والرقمي بنتنا له كانت مصابة بداء الأعصاب. فكان

أن تحقق العلاج، مما زاد أسرتها تقديراً وإكباراً له. وعناية به —وقد غدا مشهوراً بـ "الطبيب النفساني"— ظل نزيلاً عند هذه الأسرة مدة غير يسيرة، قبل أن يعود إلى المغرب، حاملاً رسالة من السلطات العثمانية إلى السفارة الإنجليزية التي كانت تنوب عن الدولة العثمانية في طنجة، توصيها بأن توفر له ما يليق من التوقير والاحترام، وكأنه أحد الرعايا الأتراك.

وبعد عودته إلى أسفي بدأ يمارس التجارة في حي "الرباط"، وكان من ضمن ما يبيعه صور سلاطين آل عثمان. وصادف في هذه الفترة وبالتحديد عام 1912م أن أعلنت الحماية على المغرب، فأبدى روحاً وطنية عالية كان من مظاهرها أنه كان في المناسبات الرسمية يرفع فوق دكانه —إظهاراً لاستخفافه بها واحتقاراً لها— قطعة قماش بالية وممزقة، في الوقت الذي كان التجار ملتزمين برفع أعلام فرنسية على دكاكينهم، وهو ما جعل الإدارة الاستعمارية تترصده وتراقبه.

وكان اندلاع الحرب العالمية الأولى عام 1914م فرصة لإلقاء القبض على الرعايا الألمان وحلفائهم الأتراك، فما كان من ابن علي إلا أن هاجر سراً إلى مراكش التي لم يكن يعرف بانتقاله إليها إلا صهره زوج أخته الشاعر الشيكّر الذي اضطر تحت التعذيب أن يفضح أمر هجرته، فكان أن أُلقي عليه القبض بعد أن أطلق سراح صهره. وتعرض هو لمحاكمة عسكرية

في أسفي عام 1339هـ الموافق 1920م، كادت أن تقوده إلى الإعدام، لولا أن خفف هذا الحكم للسجن المؤبد في معتقل "العادر" الواقع بين الجديدة وأزمور. وفيه عانى ألواناً من المعاملة القاسية نتجت عنها إصابته بداء الفتق. ويحكي المرحوم معينو حدوث مصادفة جعلت المقيم العام الفرنسي المارشال ليوطي يزور هذا السجن، فالتمس الشاعر منه العفو بقصيدة ملحونة ؛ فكان أن أطلق سراحه ونُفي من أسفي إلى مدينتي الرباط وسلا حيث فُرضت عليه الإقامة الإجبارية. والأسف أننا لم نعثر على أثر لهذه القصيدة، محفوظة أو مدونة.

على أننا نلاحظ في بعض شعره، وخاصة في تصليات توسلية شيئاً من الضيق الدال على ما كان يعانيه، سواء في هذه الفترة أو غيرها، وهو ما قد يبدو في قصيدته "الناشفة" التي جاءت كل حروفها مهملة. وفي أولها يقول:

مالٌ دمعي هاوي طول الدوام سلسال
والملاح هطلو وامطارهم رسلو
مالٌ مالك الاحوال اعلى الصدود ما سال
اعلى الهاوي الحسام اعلى الوصال سالو

بل إنا نجده في إحدى "ذكراته" العيساوية يستغيث برجال أسفي
كي يطلبوا الله أن يطلق سراحه من سجنه. وفي حربتها يقول:

يا رجال أسفي رغبو الله يطلق فالحين اسجاني
في اقريب نرجع الاوطان

وحين أطلق سراحه انتقل إلى سلا التي وجد فيها مبتغاه مع الطائفة
العيساوية، إذ اتصل بمقدمها المعلم عبد الله الشاوي الذي كان في الوقت
نفسه أميناً لصانعي "الحصور"، كما اتصل بشيخ الملحون الحاج إبراهيم
الطرابلسي الذي احتضنه. وهي ظروف كانت ملائمة للشاعر ابن علي كي
يتفرغ لنظم القصائد، وقد ظهرت موهبته وتفتقت شاعريته، وغدا أستاذا
لعدد من حفاظ الملحون وناظميه السلويين والرباطيين، أمثال أحمد بن غانم
والمعلم بنعيسى ومحمد الشاوي وآخرين. وعلى الرغم من أنه عاد إلى أسفي
عام 1347هـ الموافق 1928م، إلا أنه لم يلبث أن رجع إلى سلا حيث أحبائه
وأقرانه وتلاميذه. ثم كان أن اشتد عليه المرض فأجريت له عملية جراحية
بمستشفى مولاي يوسف بالرباط الذي كانت بها وفاته -عزباً- في جمادى
الثانية 1350هـ الموافق 1931م، ودفن بمقبرة شالة.

*** **

وكما كانت حياة ابن علي حافلة بالوقائع والأحداث ، فكذلك كان شعره غزير المادة متنوع الأغراض ، مما جعل صعباً على المعتنين أن يحددوا عدد قصائده. وقد أحصى له المرحوم الفاسي في ترجمته سبعمائة وثلاثين ومائة قصيدة قال إن عنده منها ثماناً وثمانين. ونقل عن معاصره الشيخ مولاي المهدي العلوي أنه قال: "كلام المسفيوي يفوق ألف قصيدة". وهي قولة قد تعني أنه أنتج أكثر من ألف قصيدة، وهو ما يروجه بعض الحفاظ والمعتنين ؛ كما قد تعني أن شعره لجودته وبراعته يفوق هذا العدد من القصائد، وهو الرأي الذي نرى ترجيحه.

مهما يكن فإن ما توافر لنا في الأكاديمية من قصائده وعروبياته وذكراته هو ثمان وتسعون ومائة نص تيسر جمعها من عدة مصادر، أهمها:

- 1- مجموعة قصائد وذكرات في ملك الدكتور منير البصكري، عضو لجنة الملحون بالأكاديمية، وصاحب أطروحة "الشعر الملحون في أسفي".
- 2- جزء من ديوان الشيخ ابن علي الدمناطي في ملك الشريف مولاي إدريس ابن بوفارس العلوي.
- 3- كنانيش للحاج امحمد بن غانم.

4- مصورات من قصائد عند الشاعر أحمد لبرييج والشيخ العربي الزهراوي المعروف بالبرادعي، والسيد محمد دلالابن علال الحسيكة، والشاعر مولاي ادريس المبارك.

5- محفوظات الأشياخ بنعيسى الشليوي الفاسي والحاج محمد بنسعيد والحاج بوسلهام بنسليمان، وآخرين بواسطة السيد عبد الله الحسوني عضو لجنة الملحون بالأكاديمية.

وإننا حين نتأمل نصوص تلك القصائد على كثرتها، لا نلبث أن نلاحظ أنها دائرة في فلك الأغراض المعروفة عند أشياخ الملحون والمتداولة بينهم ؛ بدءاً مما نظم من ابتهالات وتوسلات وتصليات ومدائح نبوية، إلى التبرك بالأولياء والصالحين والعناية بالأذكار العيساوية وما إليها من وصايا ومواعظ ؛ مع تخصيص حيز كبير للغزل، دون إهمال موضوع الرحلة والمحاورة والفكاهة.

ومع ذلك فقد اعتبر بعض الذين عنوا بالشاعر الدمناطي أنه كان من المجددين ؛ على نحو ما ذكر المرحوم معنينو الذي رأى أنه كان "ينظم القصائد الفريدة التي تعد ... كتجديد لفن الملحون في أبواب ومواضيع لم يسبق إليها، وتعد من بدائعه وخصائصه بالمقدرة والكفاءة على طرق كل المواضيع السهلة ... المتداولة عند رجال الفن ... وامتاز بالنوع الصعب

الذي ابتكره وهو من بنات أفكاره ولم يسبق لمشايخ الملحون ... أن طرقوه
أوتذوقوه". وأورد له كنموذج لتجديده قصيدة "الطوموبيل" التي حربتها:

سعدى زارتنى اخليلتى زهرة ذات الخال

وازهينا بعد الفراق واركبنا طوموبيل

واتسرينا بالجميع فالدنيا عرض اوطول

وأورد له كذلك قصيدة "المنارة" الدائرة حول "الخصام بين أنواع
الضياء". وفي حربتها يقول:

أش رامن لا شاهد الخصام البارح طول البهيم بين اكواكب الانوار

أوقع للشمعات والحجر

والكهربا امع الكاز والمنارة

وبهذه الرؤية نفسها نظر السيد سعيد الجدياني إلى شعر الدمناتي، إذ
اعتبره: "نابغة ويتمتع بفكر وعقل مبدع متجدد وبحاسة خاصة". وانطلق
من كون إنتاجه يفوق الألف قصيدة لينتهي إلى أن "هذا الكم الهائل مكنه
من أن يكون شيخ الملحون بامتياز وأن ينعت بالمجدد العبقري".

وبموقف معتدل نظر الدكتور البصري إلى الشيخ الدمناتي فرأى أنه
"كان يساير التجديد ... وأنه استطاع أن يهضم قصائد الشعر الملحون لقوة
موهبته الشعرية، وأن يأتي بشعر خاص له طابعه الخاص ودلالته الخاصة
ومميزته التي يتميز بها عن شعر غيره من الشعراء". ومن ثم فإنه لا يعتبره

جدد في الشعر الملحون بقدر ما رأى "أنه استطاع أن يجاري التجديد في الشعر وأن يزيد من قوة هذا التجديد حسب طاقته الشعرية".

*** **

ولا أخفي أنني وإن كنت أميل إلى هذا الرأي الأخير، لا أرى خلافاً بينه وبين الرأيين الآخرين إلا من حيث التعبير النابع من طبيعة التذوق والتجاوب، إذ المنظور يكاد يكون واحداً. والحقيقة أن الشيخ ابن علي تعامل في شعره مع مختلف الأغراض الرائجة وبالأساليب المعروفة، إلا أنه بحكم ثقافته وتجربته تمكن من تعميق خبرته بالناس والحياة، وكذا تعميق تأمله لفن الملحون، مما جعله يبدو مرتبطاً بالمتداول بين مبدعي هذا الفن، ولكن مع إضافة لمسات ذاتية محدودة إليه، هي نتيجة ما عاصره من أحداث وما شاهده في رحلاته وما قاساه من شدائد.

آية ذلك ما نلاحظه في قصائده من مظاهر لا يتسع هذا التقديم لتتبع نماذج منها بالدرس والتحليل، إذ تبقى —وهي واضحة في الديوان— دالة على أنه ما فتئ يقدم لوحات عن واقعه الاجتماعي بقصد توثيقه والتوعية به مهما تكن إيجابياته وسلبياته، أو بهدف التسلية والإمتاع عبر موضوعات هزلية ساخرة، إلا أنها هي كذلك لا تخلو من غايات تربوية توجيهية. وحين ينظر في الظواهر الكونية فإنه يعرضها كما يراها أو كما هي في مخيلته. أما المظاهر الحضارية الجديدة فإنه قد يبدي موقفه منها،

ولا سيما في بعض السجلات التي تبقى ذات طابع فني لا يخلو من فكاهاة، مع ما في هذا الطابع من طاقات رمزية وإيحاءات تبرز مدى التجاوب مع العصر ومستجداته وإن في إطار مادي محدود، وتحيل في الوقت نفسه على الواقع المتغير الذي يعيشه المجتمع. وليس هذا الواقع هو فقط ما يعبر عنه الشاعر في غزلياته ومحاوراته، ولكنه هو كذلك ما تكشفه التوصيات والمذائح النبوية وما إليها مما يعبر عن حقيقة التدين المنتشر في المجتمع، واما يخفى أو يظهر من أعماق عقيدة الشاعر في هذا المجال.

هذا بالإضافة إلى ما كان بينه وبعض تلاميذه من تبادل مشاعر المودة والتقدير والتعاطف، على نحو ما كان له مع مولاي ادريس المباركى الذي كان مرضه دافعاً لأستاذه إلى التوسل لعلاجه ببعض "العروبيات"، كهذا الذي يقول في أوله:

بشَّار الخير قال لي بلسان الحال

بشَّر سيدي ادريس بالشفأ عاجل

ويقول في آخره:

ينفاجا ذا الغيار ينزح كل احوال

بدواك اشفي لمرىض والضعف اتعامل

يتشافا من القلب والدم النازل

وبعيداً عن هذا الطرف المرضي، فإن مما كان يلفت النظر في العلاقة بين الشاعرين، تنافسهما في بعض الموضوعات، مما هو شبيه بـ"المعارضة"، على نحو ما حدث حول قصيدة "الخال" التي قال الدمناتي في حربتها:

يا كامل لَبَّها شاكي من خالِك
حَنُّ واشفق واعطف برُضاك يا مالِك

وقصيدة "الخال" الأخرى التي قال في حربتها:

جِيتُ شاكي لك يا كامل الجمال أبخالِك
لِكُ دون أخْفِيا داعيه
فقد عارضه المباركي بقصيدته التي حربتها:

خالِك يا الغزال املكني واسكن لي لَدْخال
مَنْو ما صببت امقال
واترك حالي لا حالا
فيمينو حَرْبَ وكل من جا للروض ايقاتلو

وفيها التزم قافية اللام، في حين لم يلتزمها الدمناتي الذي جاءت قافيته "صيادية" أي غير مستمدة من موضوع القصيدة وما يقتضي أن يكون حرف القافية متفقاً مع عنوان الموضوع الذي هو هنا "الخال" وقافيته "اللام".

ومع ذلك فما إخال الشيخ الدمناتي في كل الأغراض التي تناولها إلا
محاولاً إظهار براعته في التعبير وقدرته على تطويع أنماط فنية لهذا
التعبير، وفق ما فعل حين نظم في موضوعات قال فيها آخرون، ولا سيما
حين أبدع فيما لم يشاركه في قوله إلا بعض الشعراء المتمكنين، سواء في
المعرب أو الملحون. ويكفي في هذا المجال أن نشير إلى قصيدته "الناشفة"
التي حربتها:

الصّلا والسلام على امام الأرسال

الرسول الماحي طه الله رَسَلُو

فقد صاغها على نحو ما يقتضي هذا الشكل بحروف مهملة أي
خالية من النقط، وفق ما ذكر من قبل.

كما نشير إلى قصيدته "الحروف الهجائية" التي هي توسلية، وفي
حربتها يقول:

يا صاحب الشفاعة طه * - * لي ا تكون فاليعاد * - * ذكرك للقلب انزاهة

يا سيد الورى المهتاد

فقد استهل أبياتها بالحروف الهجائية، في تتابع جعله يبدأ أولها
بالألف إذ قال:

الليف أش رامنلاراهـا * - * وشمّ طيبة اشداها * - * وكان بالعزم في احماها

وختمها بحرف الياء فقال :

اليا يا كمال اسناها* - من حلتني في طرز الغاها* - هاك الوصيف لك اهداها
مَنْ بِكَ يالماحي لادَ

*** **

والحقيقة أنه ليس من السهل على من يبحث في الملحون - وحتى في الشعر المعرب - أن يثير قضية التجديد في مدلوله التغييري الجذري الذي قد يمس الأشكال والمضامين وما معهما من أدوات تعبيرية، بدءاً من اللغة والوزن والقافية. والسبب رسوخ الثقافة الملحونية التقليدية وارتباط الأشياخ بها، مهما تكن حالتهم الشعورية وما يكون لهم فيها من معاناة ؛ مما يجعلهم ميالين إلى إظهار مدى قدرتهم على استعمال تلك الأدوات، بل رغبتهم في ذلك وسعيهم إليه.

وتبقى هذه الرغبة مهيمنة على الشعراء - حتى الذين قد يفكرون في التجديد - باعتبارهم أفراداً، لا يشكلون مجموعة من شأنها أن تؤسس مدرسة أو تياراً جماعياً له مبدعوه ونقادهم ومنظروهم وجمهورهم الذي يتابعه ويتذوقه ويشجعه أو الذي ينازعه ويخاصمه ؛ وما قد يتولد عن ذلك من صراع بين القديم والجديد، مما سبق للملحون - وإن بشكل نسبي - أن عرفه خلال مسيرته الطويلة قبل أن يستقرّ على أغراض محددة وقوالب معينة.

ومن ثم ظل الشعراء ملتزمين التقاليد المتوارثة، يقتبسون منها ويكررونها، بعيداً عن التعمق في الواقع بمشاكله وقضاياها، وبعيداً كذلك عن الغور في أحوالهم النفسية التي لا يتحفزون منها أو يستوحونها في التعبير إلا برفق شديد ؛ على نحو ما نجد عند شاعرنا الدمناتي الذي عاش أحداثاً وأزمات تعرض لها المغرب منذ عقد الحماية إلى ما أعقبه من وقائع وطنية -سياسية واقتصادية واجتماعية-، كما اجتاز شخصياً معاناة صعبة أفضت به إلى السجن، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ولكن ذلك كله لم يطبع شعره أو يظهر واضحاً فيه. فقد كان قصارى جهده أن يسعى في إطار تلك التقاليد إلى إظهار براعته في التعبير ومهارته فيه ؛ وهو ما جعل له مكانة متميزة شهد له بها معاصروه، في سياق ما تعارفوا عليه وتداولوه، مما كان الذوق العام يتقبله، داخل مناخ ثقافي عام كان أقرب إلى الجمود يومئذ، رغم ظهور بوادر وعي جديد ونهوض مبشر.

الرباط، في 5 ربيع الأول 1437هـ

الموافق 17 دجنبر 2015م

فهرس

- 5 - تقديم
حميدة الصايغ الجراري
- 7 - خطاب الهوية والأخلاق
(قراءة في كتاب: كلمات تقديم للأستاذ عباس الجراري)
تصدير: الأستاذ محمد اليملاحي
- 29 - عبد الرحمان بن زيدان
تأليف: د. سعيد بنسعيد العلوي - ذ. أحمد التوفيق - عباس الجراري
- 37 - كتاب مهرجان تالكجونت
تكريم مؤرخ سوس الأستاذ أحمد بزيد الكنساني
- 45 - الرباط مدينة الثقافة والفنون
كلية آداب جامعة محمد الخامس
- 57 - هذه مذكراتي
للعلامة المرحوم عبد الله الجراري
دراسة وتحقيق: الدكتور مصطفى الجوهرى
- 63 - الفنون الغنائية بوادي درعة
للأستاذ محمد البوزيدي

- 69 - النور الإلهي - الجزء الأول -
للأستاذ الشاعر عزّ الدين الإدريسي
- 75 - ديوان: رسائل النار والماء
للأستاذة الشاعرة سميرة فرجي
- 79 - من قلم الشيخ محمد بن أحمد بنعبد الله - القسم الثالث -
للأستاذ عبد الرحيم بنعبد الله
- 89 - أنفاس التاريخ
للدكتور حامد عيّد
- 95 - منازة رياض التوبة، للشيخ الحاج محمد بن مسعود الأزموري
تحقيق و تقديم إذاعي: الحاج أحمد سهوم
شرح و تحليل: الحاج عبد الرحمن الملحوني
- 103 - تاريخ بني ملال وأحوازها
للدكتور مصطفى بن خليفة عربوش
- 109 - ديوان ملحون - الجزء الأول -
للحاج عمر بُورّي الروداني
- 115 - أسفي مدينة الأحلام، قصائد زجلية شعبية وتراثية
للأستاذ عبد العزيز الموزن

- 121 - ديوان: نبض الفؤاد
 للدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري
- 129 - المدينة المغربية في الزجل والملحون
 للدكتور السعيد بنفرحي
- - من أوليباريس إلى لوباريس
 135 (سيرة أسرة أندلسية مهجرة من الأندلس إلى الرباط)
 للدكتور محمد نجيب لوباريس
- 143 - هي أمي الحبيبة -ديوان زجل-
 للشاعر الأستاذ عبد الكامل دينية
- 149 - مكونات تلقي الشعر لدى المغاربة
 تقريب وصفي لحدود متابعتها من خلال نماذج على العهدين المريني
 والسعدي(أطروحة دكتوراه)
 للدكتور عبد الله حاتم
- 157 - ديوان اليوسي
 تحقيق: الدكتور عبد الجواد السقاط
- - المحمديات (قصائد في مدح صاحب الجلالة الملك محمد السادس
 165 (1999-2015)
 إعداد وتصدير: عبد الحق المريني، مؤرخ المملكة المغربية
 والناطق الرسمي باسم القصر الملكي

- 171 - تكريم الشاعر مولاي علي الصقلي أمير الشعراء
- 179 - الشاعر الأديب الذي غلب عليه فقهاء
- ديوان شعر العلامة الفقيه القاضي محمد بن أحمد حكم رحمه الله 2001-1924
- إعداد: الزبير حكم
- 191 مع شعراء موسوعة الملحنون في دواوينهم
- 193 - ديوان الشيخ ادريس بن علي السناني "لحنش"
- إشراف وتقديم: عباس الجراري - جمع وإعداد:
- لجنة الملحنون التابعة لأكاديمية المملكة المغربية
- 223 - ديوان السلطان مولاي عبد الحفيظ
- إشراف وتقديم: عباس الجراري - جمع وإعداد:
- لجنة الملحنون التابعة لأكاديمية المملكة المغربية
- 267 - ديوان الشيخ محمد بن علي الدمناطي المسفيوي
- إشراف وتقديم: عباس الجراري - جمع وإعداد:
- لجنة الملحنون التابعة لأكاديمية المملكة المغربية